

كتاب الهلال

شعيب حليفي

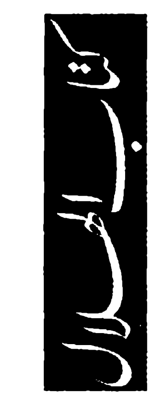
عتبات الشوق

من مشاهدات الرحالة المغاربة في الإسكندرية والقاهرة

سلسلة شهرية تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
غالي محمد

رئيس التحرير
سعد القرش



الإدارة

القاهرة: ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا)
ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١العتبة. القاهرة. الرقم البريدي ١١٥١١
. تلغرافيا: المصور. القاهرة
ج. م. ع.
تلكس:
hilal u n ٩٢٧٠٣ Telex
فاكس: FAX: ٢٦٢٥٤٦٩

مدير التحرير
أحمد شامخ

المستشار الفني
محمود الشيخ

سكرتير التحرير
صلاح زبادي

مستشار التحرير
محمد رضوان

تصميم الغلاف: محمود الشيخ

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٨٠٠٠ ليرة - السعودية ١٢ ريالا- البحرين ١,٢ دينار- قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - اليمن ٤٠٠ ريال - فلسطين ٢دولار

الاشتراكات

قيمة الإشتراك السنوى ٩٦,٠٠جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٤٠ دولاراً - أوربا وأسيا وأفرقيا ٤٥ دولاراً - أمريكا وكندا والهند ٥٠ دولاراً - باقى دول العالم ٧٥ دولاراً
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الإشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

الإصدار الأول/ يونيو ١٩٥١
البريد الالكتروني، helalmag@yahoo.com

طبع هذا العدد بأحبار باكين



عَتباتُ الشّوق

من مُشاهدات الرحالة المغاربة
فى الإسكندرية والقاهرة

شعيب حليفي

دار الهلال

العبور إلى الروح

على مدى قرون طوال ، كانوا مثل سُحُبٍ وابلة تُسافرُ فى مواقيتها من أقصى نقطة فى الغرب المُحاذى للبحر الأطلسى المترامى فى المجهول .قبل مجيئ الإسلام، ارتحل المغاربة الأمازيغ فرادى وجماعات فى علاقات ما زالت آثارها مع المصريين؛ وتقوّت بأصرة العلم والدين مع وصول الإسلام الذى حقق ما كان مُفتقدا ، فكان الفقهاء والعلماء يشدّون الرِّحال إلى مصر ،قلب الشرق العربى، طلبا للعلم والاختلاط بالعلماء لسنوات قبل العودة إلى مراكش وفاس ، أو البقاء الأبدى هناك ، وهى سُنة جرت على مرِّ القرون، خصوصا مع تنظيم الحج المغربى إلى الحجاز ومروره على محطة استراتيجية هى مصر .

كما كانت لمبادرة فقيه مغربى فى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى من مدينة آسفى ، اسمه محمد أبو صالح ، أهمية بداية تنظيم الرحلة عبر مصر فى ركب نبوى معلوم، ومن خلال نقط وزوايا معمورة .لضمان أمن وسلام الحجيج

المغربى من المغرب إلى مصر، في أكثر من اسم لهذا الركب: الصـــالحى، السجلماسى، الفاسى، المراكشى، الشنقيطى، أو أولائك الذين اختاروا الرحلة من الاندلس. وكلها رحلات هدفها الظاهر أداء شعيرة الحج ، غير أن الرحالة غالبا ما يجد فى السفر فرصة للإبداع والاكتشاف فيتحول إلى أداء شعيرة أخرى فى عبوره الذى لا يخلو من حكايات وعِبَر، خصوصا في مصر ، بالإسكندرية والقاهرة ، باعتبارها محطة متعددة المنافع تختزن من المفاجآت ما يُلِيِّنُ النفس . وقد سجل المؤرخون والرحالة والشعراء استكمال الاحتفالات بعد التقاء الركب المغربى والمحمل المصرى واستعدادهما للخروج فى رحلة مقدسة نحو الحجاز ؛ فأبدع شعراء الملحون نوعا مخصوصا لهذا الحدث أسموه " المرحول " ، كما أبدع شعراء الفصحى بقصائد تسرد ارتحال النفس وأشواقها.

ولا عجب أن تكون عائلات مصرية من أصول فاسية ومراكشية وطنجية ، وأحياء ومساجد وأوقاف مغربية مخصصة للزوايا كما سيذكر أبو سالم العياشي ذاك وهو

بالإسكندرية ، معتبرا زاوية محمد أبو صالح ،هناك، واحدة من المزارات التى يقيم بها المغاربة أثناء عبورهم .

وخلال عشرة قرون ،منذ وصول ابن العربى المعافرى فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى (١٠٩٢م) أو الغرناطى ، بعده بقليل ، ثم ابن جبير الذى وصل الإسكندرية يوم ٢٦ مارس ١١٨٣ وتدوينه لمشاهداته. لم يخلُ قرن من القرون السابقة من كتابات مغربية عن مصر باسكندريتها وقاهرتها ، بأشكال مختلفة تُعبّر فى محصلتها عن الشغف بمصر ، وهو ما سيؤكده العياشى فى شهادة بليغة على لسان ابن خلدون.

يقول أبو سالم العياشى :" وقد ذكر ابن خلدون فى كتابه: كتاب منتهى العبر أن بعض ملوك المغرب سأل بعض العلماء ممن حجّ عن مصر فقال له: أقول لك فيها قولا واختصر، من المعلوم أن دائرة الخيال أوسع من دائرة الحس، فغالب ما يتخيله الإنسان قبل رؤيته إذا رآه وجده دون ما يتخيله ومصر بخلاف ذلك: كل ما تخيلته فيها، فإذا دخلتها وجدتها أكثر من ذلك".

مؤرخون وعلماء ،فقهاء ورحالة بالعشرات ممن سجلوا مُشاهداتهم بصدق وعفوية ومحبة ، وقد لامسَ وجدانهم وعقلهم فى تجارب حياتية فريدة ، عبروا إليها برّا أو بحرا، فجاءت كتاباتهم برؤيتين متقاطعتين :

- سياحية فى معالم الإسكندرية بمنارها ومرساها وباقى عمرانها ؛ وفى القاهرة بحر النيل والجامع الأزهر والأهرامات والمساجد والخوانق والزوايا والمدارس والسلاطين والطوائف والحياة العامة .

- ثقافية وعلمية من خلال اللقاء بالعلماء والفقهاء والمشايخ وزيارتهم والأخذ بإجازاتهم ومحاورتهم والمشاركة فى المناظرة والدروس والقضاء ، واقتناء الكتب ونسخ النفائس منها ، وزيارة الأولياء والمزارات .

وقد حفلت كتابات كل الذين زاروا مصر بأوصاف وتقييدات تنوعت، منذ أولى الرحلات لأبى بكر ابن العربى المُعافرى " ترتيب الرحلة للترغيب فى الملة " وقد دامت عشر سنوات (١٠٩٢م- ١١٠٢م) دخل فيها الإسكندرية سنة ١٠٩٩ م بعدما كان قد زار القاهرة ، قبل سبع سنوات من هذا التاريخ ، وهو يافع رفقة والده.وبالإسكندرية التقى

بالعلماء وعلى رأسهم أبو بكر الطرطوشي؛ كما تولى التدريس بمحرس ابن الشواء. رحلة ضاعت فى حياة صاحبها فقيّد ملخصا عنها مما علق بذاكرته فى كتابه قانون التأويل .

أما ابن رشيد السبتى صاحب الرحلة المسماة «ملء العيبة بما جُمعَ بطول الغيبة فى الوجهة الوجيهة مكة وطيبة» فسيملأ أسفارا ،ضاع ما ضاع منها، بأخبار وتراجم العلماء فى الإسكندرية والقاهرة حوالى سنة ١٢٨٦ م ، وكذلك أبوالقاسم التجيبى الذى كتب «مستفاد الرحلة والاغتراب» بوصفها رحلة للبحث عن العلماء ، فجاء مؤلفه - بما بقى منه - برنامجا كاملا لتراجم وفهارس علماء الإسكندرية التى حلّ بها يوم الاثنين رابع فبراير ١٢٩٧؛ ثم انتقاله إلى القاهرة لاستكمال لقائه بالعلماء وضمٍّ أسمائهم إلى برنامجه ، وذلك يوم الثلاثاء خامس مارس من نفس السنة .أما السراج القيسى الملقب بابن المليح ، صاحب رحلة "أنس السارى والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب وسيد الأعاجم والأعارب" والذى رحل من المغرب سنة

١٦٣١ م قاطعا المسافة من مراكش إلى مصر فى سبعة أشهر ، لن يختلف عمن سبقه أو من سياتى بعده .

مؤرخون ورحالة جاءت مُشاهداتهم وأوصافهم مراجع أساسية للكتابة والتخيل والمقارنة ، انطلاقا مما يُولده ذلك الانبهار والشغف بالحياة والمجتمع والحضارة المصرية ومعالمها الروحية والتاريخية ... مما حقق صفحة للتثاقف والتفاعل والحوار فى أبهى صورها الخلاّقة ، بين ثقافتين أو أكثر ، مغربية وأندلسية ومشرقية .



النصوص التى يتضمنها هذا الكتاب، هى مختارات تمثيلية ، ومقتطفات بتصرف أحيانا، شذرات فقط من مؤلفات زار مؤلفوها مصر،فى حج ثقافى عبروا من خلاله إلى مكة والمدينة للحج الدينى .نصوص تتوقف طويلا عند مصر الإسكندرية والقاهرة لترسمَ صورا لرؤى وأفكار عن الأمكنة وهى مُحملة بأزمانها الحاضرة والماضية، وبشخصياتها من علماء وفقهاء وساسة ومواطنين بسطاء من المجتمع .

نصوص تُغطى مرحلة حوالى عشرة قرون، منذ القرن الحادى عشر الميلادى وإلى غاية القرن الواحد والعشرين،

تنوب عن القرون السابقة التى ضاعت منا نصوصها أو غلبت معانيها الرحالين فى أسفارهم العنيفة فلم يكتبوها ؛ كما تنوب عن ملايين الحجاج والسياح الزائرين لمدينتى الإسكندرية والقاهرة عبر كل القرون السالفة ، ومنذ نهاية القرن السابع الميلادى .

والقارئ لهذه النصوص ، مُفردة أو فى سياقها النصي، سيُصادف أنها نص واحد ، فؤاده واحد بألسنة عدة ، فيه من الجَمال ما يجعله شعورا شفّافا وأدبا رقيقا وتاريخا للثقافى وسجلا للتاريخى والجغرافى والإثنوغرافى ..إنها تمثيلات فيها من الصدق والعفوية بروح الإعجاب والنقد وحس التثاقف. إنها التاريخ الفعلى للصِّلات الوطيدة ، على مرّ التاريخ ، بين المغرب فى أقصى الغرب الإسلامى ومصر التى تشكلت صورة مشرقة وجسرا للعبور إلى الروح والذات .

شعيب حليفى

أبو بكر المعافرى
(١٠٧٦م-١١٤٨م)

استغرقت رحلة أبو بكر المُعافرى (ابن العربى) ثمانية أعوام إلى حين وفاة والده. وحوالى عشْر سنوات حتى عودته إلى اشبيلية. حيث ابتدأها فى مستهل ربيع الأول سنة ٤٨٥هـ ـ ١٠٩٢ م، وكانت عودته سنة ٤٩٥هـ - ١١٠٢م.

فى مصر:

وسرنا حتى ألفيْنا بها - أى مصر - جماعةً من المحدِّثين والفقهاء والمتكلِّمين، والسلطان عليهم جرىٌّ، وهم من الخمول فى سرب خفِي، ومن هجران الخلْق بحيث لا يرشد إليهم جريء، لا ينبِسون من العلم ببنت شفة، ولا ينتسب أحدٌ منهم فى فنّ إلى معرفة، بله الأدب فنظرنا فيه مع قوم ، منهم : أبوعبد الله محمد بن قاسم العثمانى، والسالمى، وشعيب العبدرى، وآخرون سواهم ، ذكرناهم فى موضعهم وسميناهم، وترددتُ فى لقاء الناس بين أسفل وفوق ، بما كنت فيه إلى المعارف من التوق ؛ فناظرتُ الشيعة والقدرية،

وتدربتُ فى جمل الجدل ، ونظرتُ فى نبذ من علم الكلام : وتفطنتُ من سخافة هذه الطائفة بنفسى إلى معان تممها لى النظر فى المعارف ، والتمرس بالمشايخ : أمة غلب عليها سوء الاعتقاد، ونشأت - من غير فطم - بلبن العناد ، واستولى اليأس منهم بما هم فيه من الفساد.

●●●

وقَدْ سَمِعْت تَاجَ القُرَّاءِ ابْنَ لُفْتَة بِجامِعِ عَمْرٍو يَقْرَأُ: "وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ" (الإسراء: ٧٩)، فكَأَنِّى ما سَمِعْت الآية قَطُّ، وسَمِعْت ابْنَ الرَّفَّاء - وكَانَ مِن القُرَّاءِ العظَام - يقْرأ، وأنا حَاضِرٌ بالقَرافَة: "كهيعص" فكَأَنِّى ما سَمِعْتها قَطُّ، .... والقُلُوبُ تَخْشَعُ بِالصَّوْتِ الحَسَنِ كَما تَخْضَعُ للوَجْهِ الحَسَنِ، وما تَتَأَثَّرُ بِه القُلُوبُ فى التَّقْوَى فهُوَ أعْظَمُ فى الأجْرِ وأقْرَبُ إلى لِينِ القُلُوبِ وذَهابِ القَسْوَةِ مِنْها.

●●●

فى الإسكندرية :

وقدْ شَاهَدْت بِثَغْرِ الإسْكَنْدَرِيَّة إذا مَاتَ مِنْهُم ميتٌ صَوَّرُوهُ مِنْ خَشَبٍ فى أحْسَنِ صُورةٍ، وأجْلَسُوهُ فى مَوْضِعِه مِنْ بَيْتِه

وكَسَوْهُ بِزَّتَه إنْ كَانَ رَجُلاً، وحِلْيَتَها إنْ كَانَتْ امْرَأةً، وأغْلَقُوا عَلَيْه البابَ، فإذا أصابَ أحَدًا مِنْهُم كَرْبٌ أو تَجَدَّدَ لَه مَكْرُوهٌ، فتَحَ البابَ عَلَيْه وجلس عنْدَهُ يَبْكي ويُناجيه بكانَ وكانَ حتَّى يَكْسرَ سَوْرَةَ حُزْنه بإهْراق دُمُوعه، ثُمَّ يُغْلقُ البابَ عليْه وينْصرِفُ عنْه، وإنّ تمادى بِهم الزَمانُ يَعْبُدُوها مِن جُمْلةِ الأصْنامِ والأوْثانِ.

ترتيب الرحلة للترغيب فى الملة

أبو حامد الغرناطى

(١٠٨٠-١١٧٠م)

اشتهر أبو حامد الغرناطى برحلاته التى بدأها سنة ١١١٤م برحلته إلى الإسكندرية فى مصر بقصد الاطلاع والتزود بالمعارف الدينية. أما رحلته الثانية إلى مصر فقد اختارها بحرا ليقيم بمصر زمنا قبل أن يرتحل إلى العراق، وفى الموصل سيُدوِّن رحلته التى اتخذت لباسا تاريخيا تحت عنوان :"تحفة الألباب ونخبة الإعجاب".

وفى مصر ،بموضع يقال له عين شمس، منارة مربعة علوها مقدار مائة ذراع من الرخام المجزع الصافي، قطعة واحدة محددة الرأس، على هذه الصورة على قاعدة من الرخام، كالبيت وعلى رأسه غشاء من صفر كالذهب حسنا فيه صورة إنسان على كرسى مستقبل مشرق الشمس، ويخرج من تحت ذلك الغشاء الصفر ماء يجرى على ذلك الحجر إلى أن ينتهى مقدار عشرة أذرع فى رؤية العين وقد

نبت من ذلك الماء على ذلك الحجر شيء أخضر كالطحلب يراه الناس ولا يبرح لم أر الماء على ذلك الخضرة أبدا صيفا وشتاء، وقد رأيته مرات وأهل مصر يقولون ما زلنا نرى هذا الماء صيفا وشتاءً لا ينقطع أبدا، ولا يصل منه شيء إلى الأرض، وهى من العجائب.

وفى الجانب الغربى من مصر بنيان يعرف بالأهرام، مربع الجملة مثلث الوجه، على هذه الصورة وعددها ثمانية عشر هرما.

وفى مقابلة مصر الفسطاط ثلاثة أهرام، أكبر هذه الثلاثة دوره ألفى ذراع، وفى كل وجه خمس مائة ذراع، وقد ذهب المأمون إلى مصر ليشاهدها وفتح منها هرما واحدا ألينها حجارة، وكل حجارة من حجارتها ثلاثون ذراعا فى غلظ عشرة أذرع، وقد أحكم إلصاقه ونحته وتسويته ما لا يقدر النجار الصانع أن يتخذ من خشب صندوقا صغيرا على إحكامه.

ومنها عند مدينة فرعون يوسف عليه السلام أهرام أكبر وأعظم، كل واحد منها دوره ثلاثة آلاف ذراع، وعلوه سبعمائة ذراع من حجارة لا يصنع الحديد فيها شيئا لقوتها، كل حجر خمسون.

وعند مدينة فرعون موسى عليه السلام، أهرام أخر أكبر وأعظم مما قبله، وآخرها هرم يعرف بهرم هيدوم كأنه قطعة جبل، وهو خمس طبقات، الطبقة الفوقانية كأنها قلعة على هذه الصورة.

والهرم الذى فتحه المأمون غلظ حائط الهرم الذى فتح فيه الباب أحد عشر حجرا، كل حجر عرضه عشرون ذراعا، وقد دخلت فى ذلك الهرم، ورأيت داخله قبة مربعة الأسفل مدورة الأعلى، كبيرة فى وسطها بئر عمقها مقدار عشرة أذرع، وهى مربعة ينزل الإنسان فيها فيجد فى كل وجه من الوجوه تربيع البئر بابا يفضى إلى دار كبيرة فيها موتى من بنى آدم عليهم أكفان كثيرة، أكثر من مائة ثوب على كل واحد منهم قد اخترقت من طول الزمان واسودت. وأولئك الموتى أجسادهم مثلنا، ليسوا طوالا، يقال إنهم وضعوا هناك فى زمن إدريس عليه السلام، صيانة لأجسادهم عن الطوفان الذى كان بعدهم فى زمان نوح عليه السلام، ولم يسقط من أجسادهم ولا من شعورهم شيء، وليس فيهم شيخ ولا من شعره أبيض، أو فى شعره شيب البتة. وهم أجساد كثيرة جدا.

وأجسادهم قوية جدا لا يقدر الإنسان أن يزيل منهم عضوا من أعضائهم، ولكنهم قد خفوا حتى صاروا كالغثاء خفة لطول الزمان.

وخاصة أرض مصر أن الموتى لا يبلون تحت الأرض من أى حيوان كان. وفى تلك البئر أربعة من الدور مملوءة بأجساد الموتى. وفى تلك البئر فى كل وجه من تربيعة البئر، يدخل إلى دار من تلك الدور، وفيها من الخفاش ما لا عدد له، وإنما يدخل الإنسان إلى تلك الدار بالمشاعل والنفط والحشيش اليابس يشدونه حزما كالشمع ويشعلون فيه النار لأجل الخفاش، لأنهم إذا دخلوا بالشمع والسرج أطفأتها الخفافيش بأجنحتها لكثرتها يلقون أنفسهم على النار ليطفئوها.

تحفة الألباب ونخبة الإعجاب

الشريف الإدريسى

(١١٠٠-١١٦٦م)

زار العالم والرحالة الشريف الإدريسى صاحب الخريطة المشهورة العديد من دول العالم ، من بينها مصر ، والتى أفرد لها أوصافا ذات طرافة .

الإسكندرية

وأما الإسكندرية فهى مدينة بناها الإسكندر وبه سميت وهى مدينة على نحر البحر المالح، وبها آثار عجيبة ورسوم قائمة تشهد لبانيها بالملك والقدرة، وتعرب عن تمكن وبصر وهى حصينة الأسوار نامية الأشجار جليلة المقدار كثيرة العمارة رائجة التجارة شامخة البناء رائعة المغنى، شوارعها فساح وعقائد بنيانها صحاح وفرش دورها بالرخام والمرمر وحنايا أبنيتها بالعمد المشمر، وأسواقها كثيرة الاتساع ومزارعها واسعة الانتفاع والنيل الغربى منها يدخل تحت

أقبية دورها كلها، وتتصل دواميس بعضها ببعض وهى فى ذاتها كثيرة الضياء متقنة الأشياء، وفيها المنارة التى ليس على قرار الأرض مثلها بنيانا ولا أوثق منها عقدا، أحجارها من صميم الكدان وقد أفرغ الرصاص فى أوصالها فبعضها مرتبط ببعض معقود لا ينفك التئامها، والبحر يصدم أحجارها من الجهة الشمالية وبين هذه المنارة وبين المدينة ميل فى البحر وفى البر ثلاثة أميال، وارتفاع هذه المنارة ثلثمائة ذراع بالرشاشى وهو ثلاثة أشبار وذلك أن طولها كله مائة قامة منها ست وتسعون قامة إلى القبة التى فى أعلاها، وطول القبة أربع قامات ومن الأرض إلى الحزام الأوسط سبعون قامة سواء، ومن الحزام الأوسط إلى أعلاها ست وعشرون قامة ويصعد إلى أعلاها من درج عريض فى وسطها كالعادة فى أدراج الصوامع، ومنتهى الدرج الأول إلى نصفها ثم ينقبض البناء فى نصفها من الأربعة أوجه وفى جوف هذا البناء وتحت أدراجه بيوت مبنية، ومن هذا الحزام الأوسط يطلع بناؤها إلى أعلاها مقبوضا عن مقدار البناء الأسفل بمقدار ما يستدير به الإنسان من كل ناحية، ويصعد أيضا إلى أعلاها من هذا الحزام فى أدراج أقل أبنية من

الأدراج السفلى، وفيه زراقات أضواء فى كل وجه منها يدخل الضوء عليها من خارج إلى داخل بحيث يبصر الصاعد فيها حيث يضع قدميه حين يصعد فيها، وهذه المنارة من عجائب بنيان الدنيا علوا ووثاقة والمنفعة فيها أنها علم توقد النار بها فى وسطها بالليل والنهار فى أوقات سفر المراكب؛ فيرى أهل المراكب تلك النار بالليل والنهار فيعملون عليها وترى من بعد مجرى؛ لأنها تظهر بالليل كالنجم وبالنهار يرى منها دخان وذلك أن مدينة الإسكندرية فى قعر الجون متصلة بها أوطئة وصحار متصلة لا جبل بها ولا علامة يستدل بها عليها، ولولا تلك النار لضلت أكثر المراكب عن القصد إليها وهذه النار تسمى فانوسا، ويقال إن الذى بنى هذه المنارة هو الذى بنى الأهرام التى فى حد مدينة الفسطاط من غربى النيل، ويقال أيضا إنها من بنيان الإسكندر عند بنيان الإسكندرية والله أعلم بصحيح ذلك .

أرض مصر

وأرض مصر سبخة غير خالصة التراب وبنيان دورها كلها وقصورها طبقات بعضها فوق بعض، والأعم من ذلك تكون طباقها فى العلو خمسة وستة وسبعة وربما سكن فى

الدار المائة من الناس وأكثر، وأخبر الحوقلى فى كتابه أنه كان بمصر على عهد تأليفه لكتابه دار تعرف بدار عبد العزيز فى الموقف يصب لمن فيها فى كل يوم أربعمائة راوية ماء، وفيها خمسة مساجد وحمامان وفرنان ومعظم بنيان مصر بالطوب وأكثر سفل ديارهم غير مسكون، ولها مسجدان جامعان للجمعة والخطبة فيهما أحدهما بناه عمرو بن العاصى فى وسط أسواق تحيط به من كل جهة، وكان هذا الجامع فى أوله كنيسة للروم فأمر به عمرو فقلب مسجدا جامعا، والمسجد الجامع الثانى هو بأعلى الموقف بناه أبوالعباس أحمد بن طولون، ولابن طولون أيضا جامع آخر بناه فى القرافة وهو مكان يسكنه المتعبدون وجمل من أهل الخير والعفاف وبالجزيرة التى بين ذراعى النيل جامع وكذلك فى الضفة الغربية المسماة بالجيزة.

ومصر بالجملة عامرة بالناس نافقة بضروب المطاعم والمشارب وحسن الملابس وفى أهلها رفاهة وظرف شامل وحلاوة، ولها فى جميع جوانبها بساتين وجنات وشجر ونخل وقصب سكر وكل ذلك يسقى بماء النيل، ومزارعها ممتدة من أسوان إلى حد الإسكندرية ويقيم الماء فى أرضهم بالريف

منذ إبتداء الحر إلى الخريف ثم ينضب فيزرع عليه، ثم لا يسقى بعد ذلك ما زرع عليه ولا يحتاج إلى سقى البتة، وأرض مصر لا تمطر ولا تثلج البتة وليس بأرض مصر مدينة يجرى فيها الماء من غير حاجة إلا الفيوم.

وأكثر جرى النيل إلى جهة الشمال وعرض العمارة عليه من حد أسوان ما بين نصف يوم إلى يوم إلى أن ينتهى إلى الفسطاط، ثم تعرض العمارة وتتسع فيكون عرضها من الإسكندرية إلى الحوف الذى يتصل بعمارة القلزم نحو ثمانية أيام، وليس فى أرض مصر مما يحوز ضفتى النيل شئ قفر وإنما هو كله معمور بالبساتين والأشجار والمدن والقرى والناس والأسواق والبيع والشراء، وبين طرفى النيل فيما ثبت فى الكتب خمسة آلاف وست مائة وأربعة وثلاثون ميلا، وفى كتاب الخزانة أن طوله أربعة آلاف وخمس مائة وخمسة وتسعون ميلا، وعرضه فى بلاد النوبة والحبشة ثلاثة أميال فما دونها، وعرضه ببلد مصر ثلثا ميل وليس يشبه نهرا من الأنهار.

نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق

ابن جبير

(١١٤٥م-١٢١٧م)

غادر ابن جبير غرناطة بنية الحج يوم الخميس ٣ فبراير ١١٨٣ على سفينة إيطالية ليصل الإسكندرية بعد ثلاثين يوما (٢٦ مارس ١١٨٣)، وسيرحل نحو القاهرة فى الثانى من أبريل من السنة نفسها .

عاد ابن جبير إلى غرناطة سنة ١١٨٦م.

نزولنا بالإسكندرية

فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أنْ طلعَ أمناء المركب من قِبَل السلطان بها لتقييد جميع ما جُلب فيه؛ فاستُحضِر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً وكُتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم، وسُئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناض ليؤدى زكاة ذلك كله دون أن يُبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يَحُل. وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم، فلُزموا أداء زكاة

ذلك دون أن يُسأل أحال عليه الحول أم لا. واستُنزل أحمد بن حسان منا ليُسأل عن أنباء المغرب وسلع المركب.فطيف به مُرَقباً على السلطان أولا ، ثم على القاضي، ثم على أهل الديوان ثم على جماعة من حاشية السلطان. وفى كل يُستفهَم ثم يُقيَّدُ قوله. فخُليَ سبيله، وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم وما فضل من أزودتهم، وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم وبحمل جميع ما أنزلوه إلى الديوان. فاستُدعوا واحداً واحدا وأحضرِ ما لكل واحد من الأسباب، والديوان قد غص بالزحام . فوقع التفتيش لجميع الأسباب، ما دقّ منها وما جَل، واختلط بعضها ببعض، أدخِلت الأيدى إلى أوساطهم بحثاً عما عسى أن يكون فيها. ثم استُحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا.

وفى أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدى وتكاثر الزحام، ثم أطلِقوا بعد موقف من الذل والخزى عظيم، نسأل الله أن يعظم الأجر بذلك. وهذه لا محالة من الأمور الملبس فيها على السلطان الكبير المعروف بصلاح الدين، ولوعَلِم بذلك على ما يؤثر عنه من العدل وإيثار الرفق لأزال ذلك، وكفى الله المؤمنين تلك الخطة الشاقة واستؤدوا

الزكاة على أجمل الوجوه، وما لقينا ببلاد هذا الرجل ما يلم به قبيح لبعض الذكر سوى هذه الأحدوثة التى هى من نتائج عمال الدواوين.

ذكر بعض أخبار الإسكندرية وآثارها

فأول ذلك حُسن وضع البلد واتساع مبانيه، حتى إنا ما شاهدنا بلداً أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا أعتق ولا أحفل منه، وأسواقه فى نهاية من الاحتفال أيضاً. ومن العجب فى وصفه أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها وأعتق وأمتن، لأن الماء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض فتتصل الآبار بعضها ببعض ويمد بعضها بعضاً.

وعاينا فيها أيضاً من سوارى الرخام وألواحه كثرة وعلواً واتساعاً وحسناً ما لا يتخيل بالوهم، حتى إنك تلفى فى بعض الممرات بها سوارى يغص الجو بها صعوداً لا يدرى ما معناه ولا لِمَ كان أصل وضعها. وذُكِر لنا أنه كان عليها فى القديم مبان للفلاسفة خاصة ولأهل الرئاسة فى ذلك الزمان، والله أعلم، ويشبه أن يكون ذلك للرصد.

منار الإسكندرية

ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها ،المنار الذى قد

وضعه الله عز وجل على يدى من سخر لذلك آية للمتوسمين وهداية للمسافرين، لولاه ما اهتدوا فى البحر إلى بر الإسكندرية، يظهر على أزيد من سبعين ميلاً. ومبناه فى غاية العتاقة والوثاقة طولاً وعرضاً، يزاحم الجو سمواً وارتفاعاً، يقصر عنه الوصف وينحسر دونه الطرف، الخبر عنه يضيق والمشاهدة له تتسع.

ذَرَعنا أحد جوانبه الأربعة فألفينا فيه نيفاً وخمسين باعاً، ويذكر أن فى طوله أزيد من مئة وخمسين قامة. وأما داخله فمرأى هائل، اتساع معارج ومداخل وكثرة مساكن، حتى إن المتصرف فيها والوالج فى مسالكها ربما ضل. وبالجملة لا يحصلها القول، والله لا يُخليه من دعوة الإسلام ويبقيه.

وفى أعلاه مسجد موصوف بالبركة يتبرك الناس بالصلاة فيه، وطلعنا إليه يوم الخميس الخامس لذى الحجة المؤرخ، وصلينا فى المسجد المبارك المذكور.وشاهدنا من شأن عجباً لا يستوفيه وصف واصف.

ذكر مصر والقاهرة

فأول ما نبدأ بذكره منها الآثار والمشاهد المباركة التى ببركتها يمسكها الله عز وجل:

فمن ذلك المشهد العظيم الشأن الذى بمدينة القاهرة حيث رأس الحسين بن علي بن أبى طالب، رضى الله عنهما، وهو فى تابوت فضة مدفون تحت الأرض قد بنى عليه بنيان حفيل يقصر الوصف عنه ولايحيط الإدراك به، مجلل بأنواع الديباج، محفوف بأمثال العمد الكبار شمعاً أبيض ومنه ما هو دون ذلك، قد وُضع أكثرها فى أتوار فضة خالصة ومنها مذهبة، وعلقت عليه قناديل فضة، وحُفَّ أعلاه كله بأمثال التفافيح ذهباً فى مصنع شبيه الروضة يقيد الأبصار حسناً وجمالاً، فيه من أنواع الرخام المجزع الغريب الصنعة البديع الترصيع ما لا يتخيله المتخيلون ولا يلحق أدنى وصفه الواصفون.

والمدخل إلى هذه الروضة على مسجد على مثالها فى التأنق والغرابة، حيطانه كلها رخام على الصفة المذكورة، وعن يمين الروضة المذكورة وشمالها بيتان من كليهما المدخل إليها وهما أيضاً على تلك الصفة بعينها. والأستار البديعة الصنعة من الديباج معلقة على الجميع.

ومن أعجب ما شاهدناه في دخولنا هذا المسجد المبارك حجر موضوع في الجدار الذى يستقبله الداخل شديد السواد

والبصيص. يصف الأشخاص كلها كأنه المرآة الهندية الحديثة الصقل. وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك،وإحداقهم به وانكبابهم عليه وتمسّحهم بالكسوة التى عليه وطوافهم حوله مزدحمين باكين متوسلين الله سبحانه وتعالى ببركة التربة المقدسة، ومتضرعين ما يُذيب الأكباد ويصدع الجماد. والأمر فيه أعظم، ومرأى الحال أهول، نفعنا الله ببركة ذلك المشهد الكريم. وإنما وقع الإلماع بنبذة من صفته مستدلاً على ما وراء ذلك؛ إذ لا ينبغى لعاقل أن يتصدى لوصفه لأنه يقف موقف التقصير والعجز. وبالجملة فما أظن فى الوجود كله مصنعاً أحفل منه، ولا مرأى من البناء أعجب ولا أبدع، قدس الله العضو الكريم الذى فيه بمنه وكرمه.

وفى ليلة اليوم المذكور بتنا بالجبانة المعروفة بالقرافة، وهى أيضاً إحدى عجائب الدنيا لما تحتوى عليه من مشاهد الأنبياء صلوات الله عليهم، وأهل البيت رضوان الله عليهم، والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والأولياء ذوى الكرامات الشهيرة والأنباء الغريبة. وإنما ذكرنا منها ما أمكنتنا مشاهدته فمنها قبر ابن النبى صالح، وقبر روبيل بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليهم أجمعين، وقبر آسية

امرأة فرعون رضى الله عنها، ومشاهد أهل البيت رضى الله عنهم أجمعين، مشاهد أربعة عشر من الرجال،وخمس من النساء. وعلى كل واحد منها بناء حفل. فهى بأسرها روضات بديعة الإتقان عجيبة البنيان، قد وكل بها قومه يسكنون فيها ويحفظونها. ومنظرها منظر عجيب، والجرايات متصلة لقوامها فى كل شهر..[...]

قلعة القاهرة

وشاهدنا أيضاً بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المَنَعَة، يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه، ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة. والمسخرون فى هذا البنيان والمتولون لجميع امتهاناته ومؤونته العظيمة كنشر الرخام ونحت الصخور العظام، وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور وهو خندق ينقر بالمعاول نقراً فى الصخر عجبا من العجائب الباقية الآثار، العُلوج الاسارى من الروم، وعددهم لا يُحصى كثرة، ولا سبيل أن يمتهن فى ذلك البنيان أحد سواهم.

وللسلطان أيضاً بمواضع أخَر بنيان والأعلاج يخدمونه فيه، ومن يمكن استخدامه من المسلمين فى مثل هذه

المنفعة العامة مُرفّه عن ذلك كله ولا وظيفة فى شيء من ذلك على أحد.

مارستان المجانين

ومما شاهدناه أيضاً من مفاخر هذا السلطان، المارستان الذى بمدينة القاهرة. وهو قصر من القصور الرائقة حسناً واتساعاً أبرزه لهذه الفضيلة تأجراً واحتساباً، وعيّن قيماً من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها. ووضعت فى مقاصير ذلك القصر أسرّة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكُسى. وبين يدى ذلك القيم خَدَمَة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم.

وبإزاء هذا الموضع، موضع مقتطع للنساء المرضى. ولهن أيضاً من يكفلهن. ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء، فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت محابس للمجانين.

ولهم أيضاً من يتفقد فى كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها. والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ويؤكد فى الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد. وبمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينه.

من رحلة: تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار
ابن رشيد السبتى
(١٢٥٩- ١٣٢١)

ابن السبتى المزداد فى منتصف القرن الثالث عشر سيقوم برحلة علمية طويلة إلى الشرق ابتداءً من سنة ١٢٨٣ وعمره سبعة وعشرون سنة ، وسيصل القاهرة فى سنة ١٢٨٥ ثم يغادرها ويعود إليها فى سنة ١٢٨٦ .

ملء العيبة

وافينا مصر حرسها الله ظهر يوم الأحد الثالث لشهر صفر من عام خمسة وثمانين وستمائة، ونزلنا بها بخان يعرف بربع الكارمىَ بمقر به من منزل صاحبنا المحدث أبى عبد الله محمد بن عاصم شكره الله تعالى وحفظه. والحمد لله تعالى على إكمال النعمة وإتمام البغية.



اتصل مقدمنا بالشيخ المسند رحالة مصر شيخنا أبى العز عبد العزيز بن عبد المنعم الحرانى، أبقاه الله مسلما،

وصل لنا مهنئا لنا ومسلما، غدوة يوم الاثنين الرابع من شهر صفر. فكان من قوله جزاه الله خيرا: ما بمنزلى إلا من سر بقـدومكم. واتفق أن كنا أول من دخل مـصـر من الركب الحجازى، لسبب أوجب استعجالنا. فلما استقر به المجلس، وسأل عن أحوالنا وشكر الله وحمده على بلوغ آمالنا، بدره صاحبنا أبو عبد الله بن عاصم. فقال: يا مولانا أما تضيف أصحابنا. فقال: نعم. فقال صاحبنا: الآن بإسماعهم بعض مسموعاتك. فأنعم بذلك وهكذا شأن القوم ـ نفعهم الله تعالى ـ حرصا على الإفادة والاستفادة.

وكان قد حضر فى الوقت مسموعاته جزء وهو المجلس الثالث عشر من أمالى القاضى أبى عبد الله الحسين بن هارون الضبى، فسمعناه عليه، بحق سماعه بقراءه أبيه عبدالمنعم فى السنة الخامسة من عمره، فى يوم الاثنين ثانى عشر من رجب سنة تسع وتسعين وخمسمائة، على الشيخ الصالح أبى العباس أحمد بن الحسن بن أبى البقاء العاقولي، فأقر به، أنا أبو الحسن على بن هبة الله بن عبد السلام بن عبد الله بن يحيى قراءة عليه وأنا أسمع فى منزله بدار الخلافة المعظمة بشرقى بغداد، فى محرم سنة ثمان وثلاثين

وخمسمائة أنا الشيخ الثقة أبو الحسين أحمد بن محمد بن النقور البزاز قراءة عليه فأقر به وأنا أسمع وذلك فى رجب سنة ثمان وستين وأربعمائة، أن القاضى أبو عبد الله الحسين ابن هارون بن محمد الضبى إملاء، أن القاضى أبو عبد الله الحسين بن اسماعيل الضبى فى سنة ست وعشرون وثلاثمائة، أنا أبو إسحاق الدباغ وهو إبراهيم بن اسحاق.



وممن لقيناه بمصر الأديب الفاضل الكاتب البارع الحافل جمال الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن يحيى الأنصارى المروى أبوه من أهل المرية من الأندلس، المصرى الدار، ويعرف بالجمال المغربى.

كتبت عنه بعض رسائله. ومن ذلك استفتاء كان أنشأه لسبب عرض له، وأمل أعرض عنه، فما بلغ منه ما أمله، وذلك أنه خاطب بعض الفضلاء شاكيا له بحاله، وشارحا له ما ألح عليه من فقره وإقلاله، فلم يوسه بشيء من جاهه ولا ماله، فكتب هذا الاستفتاء مستعديا عليه فى القضية، وشاكيا به إلى فضلاء الديار المصرية. ونصه وهو مما سمعته عليه بقراءة رفيقنا المعظم الوزير الجليل الماجد الكامل الأصيل أبى

عبد الله ابن الحكيم، حرس الله معاليه،وكتب فى الصالحات مساعيه :

" ما يقول السادة الأمجاد، والقادة الأنجاد، كنوز المفاخر، ومعادن المآثر، أهل المجد السامى، والفذ الهامى، والحسب التليد، والأدب العتيد، فى متعفف متكفف، فى خمل الخمول مختف، وإلى كسر الانكسار منكف، لا تمتد إليه راحة براحة، ولا يجد من المواساة من يأسو به جراحه، ولشدة ما منى به من خصاصة الإفلاس، لا يرى مادة الحياة إلا فى الأحلام وفى أيدى الناس يمسى وأوساد الهموم تساور سويداء قلبه، ويصبح وغمام الغموم يكف بما يزيد فى كربه، ولا ينفك يعالج بالمنى، قلبا بجمرات الحسرات اكتوى، ويصون عن التبذل وجها بماء الحياء قد ارتوى، أوى إلى عزيز مصره، وفريد عصره، ومن زكت منه الأواصر، وعقدت عليه الخناصر، وازدانت به صدور المحافل، ودانت له صدور الجحافل، وألقيت إليه الرياسة عصا تسايرها، وابتسمت له ثغور السعود، وضمته عواصم أسوارها، ليفتح له من الإسعاف بابا مرتجا، وليسبغ عليه من الإسعاد ظلا سجسجا، وليبوئه من الإكرام جنة دانية القطاف، وليورده من الانعام موارد عذبة النطاف،

وليقوم منآد حاله بتثقيف نظره، وليدنى من غنى طال عليه مطال منتظره، ثقة أن يمير بجوده النمير، وأن السؤال يثير إحسانه الكثير، وأن دفع العسير عليه يسير. أفيجوز لهذا المكمل المؤمل، أن يلفت وجهه عن هذا المذلل المعلل، وأنه إذا شكا إليه ضنك عيشته لا يشكيه، وإذا رآه بين أيدى الجوائح لا يندبه ولا يبكيه، ويتركه والأيام تغاديه، وتراوحه بنحوسها، وتفضى عليه من الضرورة لبوس بوسها، وتقطع طرق المناجح على رواد قصدوه، وتحكم اليأس على رجائه فتديل مقصوره على ممدوده، ولم يرقب فيه إلا ولاء، ولا ذمة انتهاء. أفتوا بمقتضى الفتوة، ومروا بمرتضى، المروة، مفضلين محسنين، على مر الأعصار والسنين ".

وكتب فى الجواب عليه عدد كثير، وجمع كثير من فضلاء المصريين وأدبائهم وعلمائهم أرانى من ذلك جملة فى بطائقها. وقال لى أريد جمعها فى كتاب يضم نشرها، ويبقى أثرها ويخلد خبرها.

«ملء العيبة بما جُمعَ بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة»

العبدرى

(١٢٤٨م- ١٣٤١م)

خرج أبو عبد الله العبدرى من المغرب نحو بلاد الحجاز، برا، فى العاشر من ديسمبر ١٢٨٩ بعد قيام دولة المرينيين بنحو ٢٠ سنة ، وقد شرع فى تدوين رحلته انطلاقا من تلمسان ، عابرا ليبيا ثم مصر التى توقف فيها بالاسكندرية والقاهرة ، ذهابا وإيابا واصفا ومنتقدا ، متعلما ومعلما ومناظرا لعلمائها .

الوصول إلى الإسكندرية

وبعد حفظ ما دَلَّ عليه هذا العنوان،واتصال التُّخْمَة بتلك الألوان ،مَنَّ الله سبحانه بمفارقة تلك البرية ،والوُصُولِ إلى مُوَاصلَة ثغْرِ الإسكندرية.مدينة الحصانة والوَثَاقَة ،وبلد الإشْرَاقِ اللاَّمِع والطَّلاَقَة،،وطَلاَوَةِ المنظر وَ حَلاَوَةِ

الْمذاقَة.كَلَّ عَنْهَا ظُفْرُ الزَّمَانِ وَنَابُه،ومَلَّ مِنْهَا جَيْشُ الْحَدَثَانِ وَأَحْزَابُه .فَلَمْ تَبْدُ عليها للزمان ضَرَاعَة،وَلاَ وكَسَتْ لها في مُعَامَلاَتِه سِلْعَةٌ وَلاَ بِضَاعَة،وَلاَ وَقَفَتْ لَهُ مَوْقفَ ذُلٍّ يوما ولا ساعَة،بَلْ ثَبَتَتْ لحزْبه ثُبُوتَ الْبَطَل،وَصَابَرَتْ كَيْدَهُ حتى اضْمَحَلَّ سحْرُهُ وبَطَل،وَ لَمْ تُصغِ أُذُناً إلى ما يُوعَدُ به منَ الخْنَا والخْطَل. فهى واقفةٌ وقوف الأَطْوَاد،سَامِيَةٌ بِطَرْفٍ غَيْرِ كَلِيلٍ وَجِيدٍ غَيْرِ مُنْآد.آخِذَةٌ من الكفر وأهله بالْمُخَنَّق،حتى أَبْدَلَتْهُمْ مِنَ الصَّافِي الْمُرَوَّقِ الْكَدِرَ الْمُرَنَّق ،فَسَامَرُوا الأَسَفَ مُسَامَرَةَ النَدَى لِلْمُحَلّقِ ،وَدَجَا عَلَيْهِمْ لَيْلُ هَمٍّ ادْلَهَمَّ بعد نهار سرور تَأَلّق،واضطرم عليهم الأسى واحتدم ،فحالفوا الندم وقالوا :عَوْضُ لاَ نَتَفَرَّق.

مدينة فسيحة الميدان ،صحيحة الأركان ،مليحة البنيان، تُسْفرُ عن مُحَيَّا جميل المنظَر، وَتَرْنُو بِطَرْفٍ سَاجٍ أَحْوَر. تَبْسَمُ عن ثغر كالأُقْحُوَانِ إذاَ نَوَّر، كأنه لم يَغِبْ عنها شخص الإسكندر، بما سَاسَ فيها من عجائب مبانيها وَدَبَّر، ناهيك بمدينة كلها عجب، قد سَتَرَ حُسْنُهَا حُسْنَ غيرها وَحَجَب، وَوَفَّى فيها الإتْقَانُ حَقَّهُ كما وَجَب،وقد أَغْنَى

عن تسطير وصفها ما سَطَّرَهُ الأعلام وَصَرَّتْ به عَلَى المْهَارِقِ الأَقْلاَم.

ومن جملة إبداعها وإغرابها ما رأيت من إتقان أبوابها . وذلك أن عَضَائِدَهَا وَعُتَبَهَا مع فرط طول الأبواب كلها منحوتة ،يُتَعَجَّبُ من حسنها وإتقانها. وكل عضادة منها حجر واحد، وكذلك كل عتبة وأُسْكُفَّةٍ. ولا أعجب من وضعها هنالك مع إفراط عظمها. ولم يُغَيِّرْ طول الزمان شيئا من ذلك،ولا أثر فيه، بل بقى بجدته ورَوْنَقه.

وأما مَصَارِيعُهَا فهى غاية فى الإحكام مُلَبَّسَةٌ بالحديد ظَهْراً وبَطْناً بِأَدَقِّ ما يكون من الصنعة،وأحسنه وأتقنه.

ومن أغرب ما رأيته بها عمود من رخام بظاهرها يعرف «بعمود السوارى» وهو حجر واحد مستدير عال جدا، على قدر الصومعة المرتفعة. وهو يبدو من بعيد بارزا فى غابة النخيل مرتفعا عنها، وقد أقيم على حجارة منحوتة مرتفعة على قدر الدكاكين العظام. عُلُوُّهَا أزيد من قامتين. ولاَ يُعْلَمُ كيف أقيم عليها، ولا كيف ثبت هنالك مع الرياح العواصف، وهو مما لا يُمْكِنُ تحريكه البتة فضلا عن إقامته هناك.

منار الإسكندرية

وأما المنار فقد كتَبَ فيه الناس وسطروا ما فيه الكفاية. وقد دخلته وتأملته وما وصلت إلى أعلاه إلا بعد جهد .ولا يظهر له من خارج فرط علو. وهو خارج المدينة على أزيد من ثلاثة أميال .وهو على تل مرتفع بشمال البلد .وقد أحاط به البحر شرقا وغربا حتى تآكل حجره من الناحيتين فَدُعِّمَ منهما ببناء وثيق اتصل إلى أعلاه ،وزِيدَ دَعْمًا بدكاكين متسعة وثيقة وُضِعَ أساسها في البحر،ورُفِعَتْ عنه ثلاث قامات .

وباب المنار مرتفع عن الأرض نحو أربع قامات ،وبُنِيَ إليه بنيان حتى حَاذَاهُ ولم يَتَّصِلْ به ووُضِعَتْ عليه ألواح يمشى عليها إلى الباب ،فإن أُزيلَتْ لم يُوصَلْ إليه.وفوق الباب من داخل المنار عدة بيوت رأيتها مغلقة. وسعة المْمَرّ فيه ستة أشبار، وفى غِلَظِ الحائط عشرة أشبار.ذَرَعْتُهُ من أعلاه .وسعة المنار من ركن إلى ركن مائة وأربعين شبرا. وفى أعلاه جامورعليه آخر دونه ،وفوق الأعلى قبة مليحة يُطْلَعُ إليها فى درج مشرعة إلى النواحى ولها محراب للصلاة .

ومن الإسكندرية إلى المنار بر متصل أحاط به البحر حتى اتصل بسور البلد ،فلا يُمْكِنُ الوصول إلى المنار فى البر إلا من البلد وفى هذا البر مقابر الإسكندرية،وفيها من المزارات وقبور العلماء والصالحين ما لا يُعَدُّ كثرة.

عن رحلة : الرحلة المغربية
ابن بطوطة
(١٣٠٤م- ١٣٧٧م)

غادر ابن بطوطة مدينة طنجة بنية الحج سنة ١٣٢٥م ولم يعد إلى فاس إلا سنة ١٣٤٩ ، ثم خرج إلى الأندلس وعاد منها سنة ١٣٥٢، ليعود فى رحلة "سفارية خاصة "إلى السودان قبل رجوعه إلى فاس سنة ١٣٥٤، مستقرا يملي على الكاتب الخاص للسلطان المرينى أبو عنان، مجموع أسفاره فى جل بلاد العالم التى كانت معروفة فى عصره، فى قارة افريقيا وآسيا وجزء من قارة أوربا .. رحلة انتهى من تقييدها سنة ١٣٥٦ميلادية .

أبواب الإسكندرية

ولمدينة الاسكندرية أربعة أبواب: باب السدرة وإليه يشرع طريق المغرب، وباب رشيد، وباب البحر، والباب الأخضر، وليس يفتح إلا يوم الجمعة، فيخرج الناس منه إلى زيارة القبور. ولها المرسى العظيم الشأن ولم أر فى مراسى الدنيا

مثله إلا ما كان من مرسى كولم وقاليقوط ببلاد الهند، ومرسى الكفار بسرادق ببلاد الأتراك ومرسى الزيتون ببلاد الصين، وسيقع ذكرها.

ذكر المنار

قصدت المنار فى هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدماً. وصفته أنه بناء مربع، ذاهب فى الهواء، وبابه مرتفع على الأرض وإزاء بابه بناء بقدر ارتفاعه، وضعت بينهما ألواح خشب يعبر عليها إلى بابه، فاذا أزيلت لم يكن له سبيل. وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار. وداخل المنار بيوت كثيرة. وعرض الممر بداخله تسعة أشبار، وعرض الحائط عشرة أشبار، وعرض المنار من كل جهة من جهاته الأربع مائة وأربعون شبراً وهو على تل مرتفع. ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد فى بر مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات إلى أن يتصل البحر بسور البلد، فلا يمكن التوصل إلى المنار فى البر إلا من المدينة وفى هذا البر المتصل بالمنار مقبرة الإسكندرية. وقصدت المنار عند عودى إلى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة، فوجدته قد استولى عليه الخراب، بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه. وكان الملك

الناصر رحمه الله قد شرع فى بناء منار مثله بإزائه، فعاقه الموت من إتمامه.

ذكر عمود السوارى

ومن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذى بخارجها، المسمى عندهم بعمود السوارى وهو متوسط فى غابة نخل. وقد امتاز عن شجراتها سمواً وارتفاعاً. وهو قطعة واحدة محكمة النحت قد أقيم على قواعد حجارة مربعة أمثال الدكاكين العظيمة ولا تعرف كيفية وضعه هنالك ولا ما يتحقق من وضعه.

قال ابن جزى: أخبرنى بعض أشياخى الرحالين أن أحد الرماة بالإسكندرية صعد إلى أعلى ذلك العمود ومعه قوسه وكنانته واستقر هنالك وشاع خبره، فاجتمع الجمع الغفير لمشاهدته، وطال العجب منه، وخفى على الناس وجه احتياله وأظنه كان خائفاً، أو طالب حاجة، فأنتج له فعله الوصول إلى قصده لغرابة ما أتى به. وكيفية احتياله فى صعوده أنه رمى بنشابة قد عقد بفوقها خيطاً طويلاً، وعقد بطرف الخيط حبلاً وثيقاً، فتجاوزت النشابة أعلى العمود معترضة عليه، ووقعت من الجهة الموازية للرامى، فصار الخيط معترضاً على أعلى

العمود، فجذبه حتى توسط الحبل أعلى العمود مكان الخيط، فأوثقه من إحدى الجهتين فى الأرض، وتعلق به صاعداً من الجهة الأخرى، واستقر بأعلاه وجذب الحبل، واستصحب من احتمله، فلم يهتد الناس لحيلته، وعجبوا من شأنه. وكان أمير الإسكندرية فى عهد وصولى إليها يسمى بصلاح الدين وكان فيها أيضاً فى ذلك العهد سلطان أفريقية المخلوع، وهو زكريا أبو يحيى بن أحمد بن أبى حفص المعروف باللحيانى. وأمر الملك الناصر بإنزاله بدار السلطنة من إسكندرية، وأجرى له مائة درهم فى كل يوم. وكان معه أولاده عبدالواحد ومصرى واسكندرى وحاجبه أبو زكريا بن يعقوب ووزيره أبو عبد الله بن ياسين. وبالإسكندرية توفى اللحيانى المذكور، وولده الاسكندرى وبقى المصرى بها.

قال ابن جزى: من الغريب ما اتفق من صدق الزجر فى اسمى ولدى اللحيانى الاسكندرى والمصرى فمات بها، وعاش المصرى دهراً طويلاً بها وهى من بلاد مصر. وتحول عبدالواحد لبلاد الأندلس والمغرب وأفريقية، وتوفى هنالك بجزيرة جربة.

ذكر بعض علماء الإسكندرية

فمنهم قاضيها عماد الدين الكندي، إمام من أئمة علم اللسان. وكان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم لم أر فى مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها. رأيته يوماً قاعداً فى صدر محراب، وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب ومنهم فخر الدين بن الريغى وهو أيضاً من القضاة بالإسكندرية فاضل من أهل العلم.

حكاية: يذكر أن جد القاضى فخر الدين الريغى من أهل ريغة، واشتغل بطلب العلم، ثم رحل إلى الحجاز، فوصل الإسكندرية بالعشي. وهو قليل ذات اليد، فأحب أن لا يدخلها حتى يسمع فالاً حسناً فقعد قريباً من بابها، إلى أن دخل جميع الناس. وجاء وقت سد الباب ولم يبق هنالك سواه فاغتاظ الموكل بالباب من إبطائه، وقال متهكماً :أدخل يا قاضي. فقال: قاض إن شاء الله، ودخل إلى بعض المدارس، ولازم القراءة وسلك طريق الفضلاء، فعظم صيته، وشهر اسمه، وعرف بالزهد والورع، واتصلت أخباره بملك مصر. واتفق أن توفى قاضى الإسكندرية وبها إذ ذاك الجم الغفير من الفقهاء والعلماء، وكلهم متشوف للولاية، وهو من بينهم،

لا يتشوف لذلك فبعث إليه السلطان بالتقليد، وهو ظهير القضاء، وأتاه البريد بذلك، فأمر خديمه أن ينادى فى الناس من كانت له خصومة فليحضر لها وقعد للفصل بين الناس. فاجتمع الفقهاء وسواهم إلى رجل منهم كانوا يظنون أن القضاء لا يتعداه، وتفاوضوا فى مراجعة السلطان فى أمره، ومخاطبته بأن الناس لا يرتضونه. وحضر لذلك أحد الحذاق من المنجمين فقال لهم: لا تفعلوا ذلك فإنى عدلت طالع ولايته، وحققته فظهر لى أنه يحكم أربعين سنة. فأضربوا عما هموا به من المراجعة فى شأنه. وكان أمره على ما ظهر للمنجم. وعرف فى ولايته بالعدل والنزاهة. ومنهم وجيه الدين الصنهاجى من قضاتها مشتهر بالعلم والفضل. ومنهم شمس الدين ابن بنت التنيسى فاضل شهير الذكر. ومن الصالحين بها الشيخ أبو عبد الله الفاسى من كبار أولياء الله تعالى، يذكر أنه كان يسمع رد السلام عليه إذا سلم من صلاته. ومنهم الإمام العالم الزاهد الخاشع الورع خليفة صاحب المكاشفات.

كرامة له: أخبرنى بعض الثقات من أصحابه قال رأى الشيخ خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم. فقال

يا خليفة: زرنا فرحل إلى المدينة الشريفة، وأتى المسجد الكريم، فدخل من باب السلام، وحيا المسجد، وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقعد مستنداً إلى بعض سوارى المسجد، ووضع رأسه على ركبتيه، وذلك يسمى عند المتصوفة الترفيق. فلما رفع رأسه وجد أربعة أرغفة، وآنية فيها لبن، وطبقاً فيه تمر، فأكل هو وأصحابه وانصرف عائداً إلى الإسكندرية ولم يحج تلك السنة.

ومنهم الإمام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج، من كبار الزهاد وأفراد العباد، لقيته أيام مقامى بالإسكندرية وأقمت فى ضيافته ثلاثاً.

عن رحلة :
تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار
رحلة البلوى (١٣١٤ - ١٣٧٩)

خرج أبو البقاء البلوى من قنتورية بإقليم المرية / الأندلس فى رحلة ستدوم أربع سنوات (١٣٣٧- ١٣٤٠) وقد كان وصوله إلى القاهرة فى عامه الأول سنة ١٣٣٧ .

الفرج بعد الشدة

وهبّت ريح سرنا بها حتى أنعم الله سبحانه وظهر منار الإسكندرية فأعلم الناس بذلك، فضجوا سرورا بالدعاء والبكاء، وأعلنوا بالحمد والشكر لله تعالى والثناء، وكادوا أن يقضى عليهم ذلك الأمل ومن فرح النفس ما يقتل.

خفقت قلوبهم سرورا بعدما   باتوا بأفئدة يراع خوانق

فما رأيتُ قبلها بشارة أحلى فى النفوس، أوقع فى القلوب، ولا أعظم سرورا من سرور الخلق بها فى تلك الساعة. وما ظنك بساعة أعلنت بالكرم والجود، وأعلمت بالخروج من العدم إلى الوجود، وفيها نطق لسان الشكر بما تيسر على الفكر.[...]

فوصلنا وجفن الظلام قد انطلق على عين الشمس، ومضى اليوم مضى الأمس، ودخلنا المرسى بقرب المنار، فى ليلة الجمعة الثالث عشر لجمادى الأخرى من عام سبعة وثلاثين المذكور، ولما بدأ من الفجر سفور، ونثر الصبح كافور، وركبت إلينا زوارق المدينة، وخرج الناس لمشاهدتنا فى أحسن الزينة، نزلنا البر لا نلوى على جريج ولا نصبر ريثما يسكن البحر من ماء وريح، وأقبلنا الساحل قاصدين تائبين من ركوب البحر أبد الآبدين فلما وطأنا الرمل وسلمنا على الإخوان احتضنا بالشرط والأهوان، وحملنا بأجمعنا إلى الديوان هناك شاهدنا الحساب وأرينا العذاب، وملئوا منا البيوت والرحاب ثم أمرت اليد على القليل الكثير، والحقير والنقير، والدفتر والقطمير، والرفيع الوضيع والغنى والفقير، وفتشت الأوساط. وعمّ الزحام والاختلاط. وكثر الهياط والمياط، حتى خرج المخزون والموزون، وبرز المعكوم والمختوم، وعند الله تجمع الخصوم. فأخذ من كل عشرة دنانير ديناران ومن كل عشرة دراهم درهمان، ظلما وعدوانا وجورا وطغيانا فاستشعرت الأسف، ونسيت كل رزء سلف، ووددت للنزر الحاضر لو كان مع الشىء الآخر ذهب وتلف.[...]

حصاها جوهر

فانتظم الشمل بقصر الموضوع، بديع المجموع، يعجب بقطعه المتجاورات، وحدائق فيها من كل الثمرات ونخل كالكتائب قابلت الكتائب، والعذارى أرخين الذوائب، فيها قنوان من البسر وألوان تعدى على العسر، وتهدى إلى اليسر فلم أر مدينة أحسن منها وضعا ولا أبدع ربعا، ولا أوسع مسالك ولا أعلى مبانى ولا أسمى مراقى، ولا أجمل مراسم، ولا أوضح معالم، ولا أملح أزقة، ولا أعجب رونقا ورقة، ولا أحسن تفصيلا وجملة .[...]

فكأن محاسن الدنيا فيها مفروشة، وصورة الجنة فيها منقوشة، كوكبها يقظان، وجوها عريان، وحصاها جوهر ونسيمها عطر، وترابها مسك أذفر، ويومها غداة، وليلها سحر، وكفاها أن ليلها كالنهار فى تصرف العباد، وإعادة مسائها كصباحها، وهو غير المعتاد، وهل هى إلا ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد، ذكر المفسرون عن أبى ابن كعب فى قوله تعالى إرم ذات العماد: إنها الإسكندرية، فهى من أعجب البلدان، وفيها بنيان عجيب، ذكر صاحب الجغرافيا أنها بنيت فى ثلاثمائة سنة، وأن أهلها مكثوا سبعين سنة

لا يمشون فيها بالنهار إلا معصبى الأعين بخرق سود، خوفا على أبصارهم من شدة بياضها، وعلى منارها سرطان من رخام .[...]

القاهرة، عنبرية الأنفاس

ولم نزل نسرح فى روض من ذلك الاجتماع، ونشرح ما وجدناه من البعد والانقطاع، إلى أن تهيأ نفرنا، وتأتّى فى البر سفرنا، فخرجنا من الإسكندرية فى يوم الثلاثاء ثامن يوم من رجب المذكور، وسرنا فى بسيط من الأرض عريض مرداه لا يخترقه النسيم بمسراه، ويكاد البصر يقف عند مداه، بين مدائن عليها نضرة النعيم وبساتين اعتمارها من التعميم، وسرحات مونقة، ودوحات مورقة، ونخلات طلع، وخامات زرع، تموج بدائعها موج البحر، وتلوح طلائعها بين كتائب الزهر من لم ير أرض مصر فى أوان ربيعها، وابان زروعها، لم ير منظرا نضيرا إلى أن وصلنا إلى مدينة (القاهرة) فدخلناها فى آخر يوم الأحد الثالث عشر لرجب من العام المذكور فنزلنا منها بقرب الجامع الأعظم المشهور بجامع ابن طولون الذى بناه ابن طولون ،فيما يذكر، على مثال المسجد الحرام بمكة المشرفة طولا وعرضا، ولما أنبت كافور الفجر من المسك الغياهب، وظهرت الشمس المنيرة على النجم الثواقب. (...) .

من رحلة: تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق

ابن خلدون

(١٣٣٢-١٤٠٦)

وصل ابن خلدون إلى الإسكندرية على السفينة قادما من المغرب يوم عيد الفطر ، مع بداية شهر ديسمبر ١٣٨٢ م ، ولم يُغادر مصر،التى تولى فيها القضاء ، قاصدا الحج ، إلا فى نهاية سبتمبر ١٣٨٧م.قبل أن يعود مرة أخرى إلى مصر مستقرا فيها .

الرحلة إلى المشرق ، وولاية القضاء

ولما رحلتُ من تونس منتصف شعبان من سنة أربع وثمانين، أقمنا فى البحر نحوا من أربعين ليلة، ثم وافينا مرسى الاسكندرية يوم الفطر. ولعشر ليال من جلوس الملك الظاهر على التخت، واقتعاد كرسى الملك دون أهله بنى قلاوون وكنا على ترقب ذلك، لما كان يؤثر بقاصية البلاد من سموه لذلك، وتمهيده له. وأقمت بالإسكندرية شهرا لتهيئة

أسباب الحج ولم يُقدر عامئذ، فانتقلت إلى القاهرة أول «ذى القعدة»، فرأيت حضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسى الملك، تلوح القصور والأواوين فى جوه، وتزهر الحوانك والمدارس بآفاقه. وتضيء البدور والكواكب من علمائه؛ قد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء، يستقيم النهل والعلل سيْحَهُ ويجنى اليهم الثمرات والخيرات ثجه؛ ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة، وأسواقها تزخر بالنعم. ومازلنا نحدث عن هذا البلد، وبعد مداه فى العمران، واتساع الأحوال؛ ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا، حاجهم وتاجرهم، بالحديث عنه. سألت صاحبنا قاضى الجماعة بفاس، وكبير العلماء بالمغرب؛ أبا عبد الله المقري، مقدمه من الحج أربعين سنة، فقلت له: كيف هذه القاهرة؟ فقال: من لم يرها لم يعرف عز الإسلام.

وسألت شيخنا أبا العباس ابن إدريس كبير العلماء ببجاية مثل ذلك فقال: كأنما انطلق أهله من الحساب؛ يشير إلى كثرة أممه وأمنهم العواقب.

وحضر صاحبنا قاضى العسكر بفاس، الفقيه الكاتب أبوالقاسم البرجى بمجلس السلطان أبى عنان، منصرفه من السفارة عنه إلى ملوك مصر، وتأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم، سنة ست وخمسين وسأله عن القاهرة فقال:

أقول فى العبارة عنها على سبيل الاختصار: إن الذى يتخيله الإنسان، فإنما يراه دون الصورة التى تخيلها، لاتساع الخيال عن كل محسوس، إلا القاهرة، فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها. فأعجب السلطان والحاضرون بذلك.

ولما دخلتها، أقمت أياما، وانثال على طلبة العلم بها، يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة، ولم يوسعونى عذرا؛ فجلست للتدريس بالجامع الأزهر منها.

ثم كان الاتصال بالسلطان، فأبر اللقاء، وآنس الغربة، ووفر الجراية من صدقاته، شأنه مع أهل العلم، وانتظرت لحاق أهلى وولدى من تونس، وقد صدهم السلطان هنالك عن السفر، اغتباطا بعودى إليه، فطلبت من السلطان صاحب مصر الشفاعة إليه فى تخلية سبيلهم، فخاطبه فى ذلك .

من كتاب: التعريف بابن خلدون ورحلاته شرقا وغربا
القلصادى
(١٤٢٢-١٤٨٧)

دامت رحلة القلصادى ما بين ١٤٣٧م و١٤٥١ م، قطعها في خروجه من غرناطة ،على مراحل ، فقد استقر بتلمسان ولم يغادرها إلى تونس إلا فى سنة ١٤٤٥ م، وبقي مستقرا ولم يرحل منها إلى مصر ١٤٤٧ م حيث وصل الإسكندرية يوم ١٤ غشت ١٤٤٧م وخرج منها يوم ٢١ من نفس الشهر ليصل القاهرة يوم ٢٩ غشت ولم يغادرها إلا فى السابع من أكتوبر ,١٤٤٧

الوصول إلى ثغر الإسكندرية

وبلغنا إلى ثغر الإسكندرية غرة جمادى الثانية ١٤أوت ١٤٤٧م، بعد مشقات عظام،تحار فى وصفها المحابر والأقلام، حتى وقع من كل لأمر الله الاستسلام وصار الإنسان ينادى بلسان الحال: (انا الغريق فما خوفى من البلل؟) ولما دخلنا المدينة وقَرَّ بِنَا فيها القرار، وزال عنا وعثاء السفر، أقمنا بها أياما مستبشرين، وزُرْنَا فيها الأولياء والصالحين.

والمدينة من أحسن البلاد ترتيباً وبناءً،وجدرانها بالحجر الأبيض المنجور، وسككها كلها على نسق، نافذة متسعة يعلم من ذلك أنها من تخطيط حكيم،وبناؤها تحت الأرض محكم، والماء يخترق باطنها، غير أنها قد خربت وخلا أكثرها من العمارة، وهى كثيرة الوخامة،فلا تجد أهلها إلا صفر الوجوه، وإذا مر على الإنسان فيها يوم أو يومان،يشعر بالضعف والنقص فى بدنه، وذلك من أجل مائها، والله أعلم.

ومن العجائب التى فيها:السارية خارج باب السدرة،اكتلت فى أحد جوانب القاعدة التى هى عليها عشرين شبراً، وهى مربع متساوى الأضلاع.وكان سفرنا منها فى بحر النيل فى الثامن من جمادى الثانية.

الوصول إلى القاهرة

وبلغنا إلى بولق سَحَرَ يوم الثلاثاء السادس عشر من الشهر ٢٩ أوت ١٤٤٧م ، ودخلنا القاهرة ذلك اليوم، ورأينا فيها من الأمور والأحوال، ما لا يعده الحصر والقياس ،من كثرة الخلق وازدحام الناس،ونزلت بجامع الأزهر،ووجدت هناك بعض الفضلاء والأخيار من أهل المغرب.

وبعد ذلك وقع اجتماعنا بصاحبنا الفقيه الإمام الفذ فى وقته ذى العلوم الفائقة والمعانى الرائقة أبى الفضل المشذالي، لم أر مثله فى تحصيل العلوم وتحقيقها، آخذ فى كل علم بأَوْفَرِنصيب، وضارب فيه بسهم مصيب، وتذكرنا أزماناً مضت لنا بتلمسان،ويا لها من ليالٍ وأيام، مع أشياخ وسادة أعلام.

أحاديث أحلى فى النفوس من المنى
وألطف من مر النسيم إذا سرى

ثم زرت هناك ما هو عندهم من المواضع المعظمة كمسجد الحسين ومقام الإمام الشافعى وشهرته تُغْنِى عن تعريفه ،وهو من أشرف المواضع والبقاع،وعندهم من الأماكن الشريفة، مقام السيدة نفيسة، وقد كلل بالحلى والحلل،وكساه المولى الهيبة والجلال.

لقاء:

ثم (اشتغلت) بالقراءة على الشيخ الفقيه الإمام المقرئ (المالكى) سيدى زين الدين طاهر فقرأت عليه بعض المختصر للشيخ خليل، وحضرت البعض منه، وكذلك بعض التفريع لابن الجلاب، وبعض شرح الشاطبية للفاسى، وكذلك لازمت

القراءة على الشيخ الفقيه الإمام الصوفى الشافعي:سيدى أبوالعباس علَم الدين الحصنى فقرأت عليه جميع كتابه المسمي بفوائد العقائد فى الأصول، وايساغوجى لابن الأثير فى المنطق، وبعض الطوالع للبيضاوى.

الخروج

ثم سرت يوم الأحد السادس والعشرين لرجب ٧ أكتوبر١٤٤٧م إلى التربة المسماة بتربة عبد الغنى ورحلنا منها يوم الثلاثاء، وبلغنا إلى الطور يوم الخميس الثامن من شعبان ١٩ أكتوبر ١٤٤٧م وركبنا البحر من هناك فى السادس عشر من الشهر٢٧ أكتوبر ١٤٤٧م، وبلغنا إلى الينبوع عند الزوال من يوم الجمعة السابع من شهر رمضان المعظم ١٦ نوفمبر١٤٤٧م وكان سفرنا من الينبوع يوم الأحد سادس عشر من رمضان ٢٥نوفمبر١٤٤٧م.

من رحلة القلصادى المسماة:
«تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب»
ابن الصباح
(القرن الخامس عشر الميلادى)

رحل عبد الله بن الصباح الأندلسى إلى الحجاز فى القرن الخامس عشر الميلادى فى رحلة عنوانها: (منشاب الأخبار وتذكرة الأخيار) وقد يكون كتبها سنة ١٥٢٣م .

زيارته لمصر فيها كثير من الشوق والطرائف .

قال الراوى : مدينة الإسكندرية مثلها مثل البيضة إذا خرجت من بطن الدجاجة بيضاء نقية ودورتها ثلاثة أميال من كل جهة .الجملة اثنا عشر ميلا وهى داخلة فى البحر كأنها جزيرة هى وبساتينها يحدق فى البحر ، وأسوارها عالية ، وفيها قيسريات وأسواق من كل التجارات ، وفى كل دار جُبّان من الماء ملح وعذب ، وهى مبنية على أقواس من أجل

رشح ماء البحر ، وفيها زقاق رشيد لم تر العيون مثله على وجه الارض ويُسمى باب رشيد المشهور بالإسكندرية ، وقُدام منظره روضة الإمام الشيخ أبى القاسم بن أبى خلف بن فيرة الرعينى الشاطبى قدس الله روحه ونور ضريحه، وعليه بنيان قد فَنِيَ وخربَ، وله مزار يوم الخميس ، وعند باب البحر قبر سيدى المرسى قدس الله ضريحه والصالحين جملة .

ومدينة اسكندرية الخبز فيها لا يوزن وخبزة بثلاث فلوس من فلوس مصر. وعليها قرى ومداين وحرث ونسل منها تروجه ودمنهور وغيرها من القرى وكل قرية قدر مدينة فيها الأسواق والبيع والشراء وهى تسقى من النيل وقت الفيض يجيئها خليج من الماء وقت الزيادة وعليها أجنة وبساتين وقصور ومبان ومنارة وغناء بالشبابيب والأوتار ورطب النخل جنة فى الأرض، والغالب على صرفها درهم الورق ونحاس صينى يتبايعون به والدراهم من النقرة والفضة والنحاس الأحمر وعليها طابع السلطان ، وفيها خطبتان بجامع العزيز وجامع العطارين والمساجد للصلاة كثيرة .

ومدينة اسكندرية كثيرة المطر ، وهى باب المشرق وباب المغرب، جامعة لجميع الطوائف من طوائف الروم من الإفرنج

وبردقال وفنشى وقطلانى وافرانسى وجنوى وبندقى وحبشى وقبرصى وصقلى دون تجار المسلمين ، ويوم الجمعة يغلق على جميع الروم فنادقهم حتى تنتهى صلاة الجمعة وفى كل فندق قوانص أعنى بالقونصُ ،الأمين الضامن لطائفته فى كل ما يجرى منهم ، وهو يطلب بالدية وهو مجعول من جماعته وساكن بأولاده وحريمه ولا يطلبُ السلطان إلا هو فى جميع ما يحتاجُ إليه من أمور الطوائف ، وأما أمر الترك فلهم ضبط عظيم فى الأحكام يشنقون السارق على بيضة ، ولولا ذلك لضاعت البلاد والأحكام كأنهم أخذوا بشيء من الطاغوت وشيء من كتاب الله عز وجل حيث يقول : يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم .



ومدينة مصر ما على وجه الأرض أقوم منها فى جميع الأشياء ، فهى مكمولة من كل شيء مباركة ، وزيتها ثلاثة أنواع ، زيت الزيتون وزيت الجلجلان وزيت الكتان وهو يُعمل من الكتان يخلطونه مع الذهب ويُلبسون به الحيطان فى المساجد وأكثر ما يستعملونه فى ماء الذهب ، ومنه العادى وهو الذى يوقدون به مصابيحهم .



والله لقد شاهدتُ النيل تسافر فيه اثنا عشر ألف مركب مشرقين مغربين كلها تجلبُ التجارات إلى مصر المباركة بجميع ألوان الأرزاق من القمح والتمر والفواكه من مدينة أسوان إلى مدينة قوص إلى مدينة مصر . ولقد رأيتُ مراسى مراكب مصر وأسميها لك: مرسى القاهرة ، مرسى بولاق، ومرسى مصر البالية وتسمى المقياس والبهترة وسُميت البهترة لأن فيها تتفرج الناس بعد صلاة العصر ، وينزل فيها ألف حمل من القصب الحلو وهو قصب السكر ما يأتى عليه غروب الشمس إلا ويبقى الذى يكون آخرا ما يصيب ما يمضغ من كثرة الخلق رجالا ونساءً كبارا وصغارا ،وذلك فى كل يوم بعد العصر ولا تعرف يوم العيد من سائر الأيام بالزينة فى كل يوم .



بلاد الشرق والغرب ومداينها عند قوة مصر مثَلُها مثل العصفور فى مخلب الباز ، لم أر مثلها فى الخمسة أقاليم التى زرتها ، لا فى البيع ولا فى الشراء ، ولا فى الأخذ والعطاء ، والصرف والسخاء ، والأمر والقضاء ، والخير والبلاء ، والمحنة والشدة فى جميع الأمور : ما فى الدنيا كلها

مثل مصر وكيف لا والله سماها البلاد دون غيرها وخصّها بالبركة والضياء والنور ، أهلها واسعة القلوب عندهم السخاء والصدقة وإطعام المساكين والغرباء والأيتام وكفى بها أن الله نص عليها وذمَّ ظالمها ومدحَ أرضها وجعل الأسف فى خروج أهلها منها ، والدليل على أنها خير البلاد .

●●●

يقوم أهل مصر بالفرض المعلوم كل يوم ، الرجل يعطى زوجته نفقتها فلوسا معلومة لعشائها وغذائها ومنهن من تأخذ كل يوم نصف نقرة دراهم صرفها اثنا عشر فلس نحاس تنفقها على نفسها ، ومن النساء من تنفق وتأخذ درهم نقرة ومنهن من تأخذ خمسة دراهم ومنهن عشرة ومنهن أهل التجارة دينار كل يوم وتنفق لنفسها. ونساء مصر مستورات بالسراويل والأخفاف على السراويل مدخولة فى الشرمزة . ونساء الحضر بالنقاب ونساء البادية بالبرقع على وجوههن كبارا وصغارا .

●●●

من مخرقات مصر أن فيها ألف حمار مزينة بالسروج والبرادع المزينات ، يركب عليها النساء والرجال ، وصاحب

الحمار يقود المرأة والرجل ويطير به مثل البرق ويوصل الراكب ثم يأخذ راكبا آخر حتى النيل . والفرجة والخوارق فى البلد سواء فى الأعياد أو سائر الإيام . وهؤلاء النساء صدقاتهن على المساكين أين يتفرجن تعدل بصدقات أهل البرية ، وإذا كانت ليلة الجمعة أو يوم الجمعة لو تعطى امرأة منهن مائة دينار ذهب أنها تفعل معصية لا تفعلها أبدا ، وأهل مصر كثيرو التصلية على النبى عليه السلام ، وكل عمل فيه مقبول ومردود ، والصلاة على محمد - صلى الله عليه وسلم - كلها مقبولة . ومن خوارق مصر الدجاج بِرَاعٍ يرعاها بإجارة ويسقيها فى وادى النيل مثل الغنم . ومن فرجة مصر أن كل يوم جمعة يخرجون بالفيل يدور فى الأسواق يسعون به الفلوس ، وصفة الفيل قدر الفرس السمين الكبير له وبر أصفر وحافره مدور وأذناه مثل أذنى البغل وله أنياب مثل أنياب الخنزير ونحوه وله فم تخرج منه زرمة مثل المصران له فيها فم به يأكل ويشرب ووجهه يشبه وجه البرذون ولحمه دونى .

أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار

ابن أبى محلى

(١٥٦٠-١٦١٣)

ابن أبى محلى الفقيه المغربى الصوفى والثائر الذى ادعى انه المهدى المنتظر ورغب فى عرش المغرب.

سافر لأداء فريضة الحج سنة ١٥٩٣- ١٥٩٤ وتعرض للجوع والعطش بصحراء برقة حتى كاد يهلك فأكل عروق النباتات والجلود وشرب من ماء البحر لكن لصاً أكرمه فنجا. زار بعدها الإسكندرية والسويس ثم دخل أرض الحجاز، بعد فراغه من أداء مناسك العمرة عاد مع الركب المغربى.

وفى سنة ١٦٠٦- ١٦٠٧ خرج ابن أبى محلى للمرة الثانية محرماً بالحج ليصل إلى القاهرة حيث قابل الكثير من مشائخه المشارقة على رأسهم الشيخ سالم السنهورى بالإضافة إلى طه البحيري والشيخ أبو بكر الشنواني وغيرهم.

وكنت حين الأخذ عنه فى الحجة الأولى، رث الهيئة، فى غاية الضيعة، قد لا يعبأ بى الناظر إلا بعد سبر حاضر، عن

الحقيقة حاسر. فكان لا يباليني يومئذ إذا سألته، كغيره، إلا قليلا حتى انفصلت عنهم نحو المغرب. وقد تركت فيهم من نظمي، ونثري، ما نوه بذكري، وخبري، فندموا على إهمالي، فلما عدت الثانية ثلاثة عشر وألف أو أربعة عشر، برسم الحج أيضا في نفر، وركب غير كبير، بخلاف الهيئة الأولى لأني صاحب ذلك الركب ونزلنا من القاهرة بغرب جامع طولون. فما شعرنا إلا والإمام السنهوري المذكور - رحمه الله - راكب على حماره من الجامع الأزهر يتلقانا ويهنينا. فعجب الناس من فعله إذ لا يركب لأحد قبل ذلك شرقا أو غربا. فهش وبش وعظم وصرح بالقطبانية في حق من عليه سلم عن ظهر الغيب، والله أعلم، بحق ما به تكلم. فشاهدت من بروره ما راعني، واستدعاني لداره بعد المقفل من الحجاز، فأكرم وودع وبالغ في القبول، شكر الله سعيه فبمن أدخله بفضله الجنة بغير حساب وقد فاز .



وكذلك البدخشي المذكور أيضا حنفي المذهب، عن شيخ هندي كان مجاورا معهم بمكة قبل قدومنا عليها، من مشايخ الصوفية الأعزاء ثم عاد إلى الهند وإنه يوم الحكاية فيما أرى

بقيد الحياة، إلا أنه غائب عنا. وإنه يوما من الأيام كان جالسا بالحرم الشريف، والشيخ إبراهيم المذكور كغيره فى حلقته: ثم أنه جرى له ذكر كرامة الأولياء وعزتهم على ربهم، وأن لهم معه تعالى سرا وعلما مكنونا. فقال له بعض الحضور ما معناه دعنا من هذا فإن كنت منهم فلينقلب هذا الحجر في يدك ذهبا. فعدها لأحدهم فإذا بها ذهب ابريز. ثم مضى بها الشيخ إبراهيم أو غيره للسوق فصرفها- نفعنا الله بهم حيث كانوا. فإنهم القوم لا يشقى بهم جليسهم. والراوى هذا شيخنا ثقة، وكذا الشيخ إبراهيم رضى الله عنه، وكلاهما ذو علم ودين فيما أرى.

قلت: وأنا أيضا قد اتفق لى مثل هذه مع مجدوب من مجاديب مصر أظن أن اسمه ريحان، وذلك عن بروزنا فى الحجة الأولى برسم الراجبية. ونزلنا على العادة بالبركة ليجتمع الناس وفى قائلة من تلك الأيام خرجت من خباء أصحابى لأنفرد بنفسى وهم من القدس ومصر. فأتيت حائطا فيه شجر الأثل وغيره، والناس فيه متفرقون على ظلاله ثم تخطيت أوائلهم طلبا لمحل لا مشوش فيه من ظله. وقد مررت برجل حاف على رأسه خرقة. يمشى كالمجنون بين الناس.

وما عبأت به حتى جاوزته فإذا الجسر ورائى قد تبعني. فالتفت فإذا به عندى يكلمنى قائلا ما معناه: إلى أين تذهب؟ هذا كله ملك الله! فدهشت منه! ثم إنه سايرنى ساعة حتى انتهينا إلى ظل شجرة ليس فيه شاغل. فجلس بى، ثم إنه قال لي: هل عندك شيء من الدراهم؟ فأخرجت له جميع ما فى ملكي يومئذ وهى تسعة دراهم لا سوى، فسألنيها. فألقيتها فى يده. ثم قال لى أخرجت عنها الله؟ قلت نعم، ولو كانت الدنيا كلها فى يدى لرميت بها فى كفك طيبة بها نفسي. وما زال يكرر على وأنا فى زيادة معه حتى رمى بها فى الهواء فأتبعتها بصرى، وما وقعت فى الأرض. بل لا أدرى، وإن - كنت داريا- أين موقعها، ولا كيف كان أمرها فأزددت رعبا. وقد علانى البكاء والعجب. وقبلت اليد للرجل. وسألته سؤالا مضطرا معترا.

فقال لى: قم فاركع أربع ركعات أو اثنتين شكرا لله تعالى. وصل على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كذا وكذا. ثم نم فى موضعك إلى صلاة العصر.

فما وسعنى إلا طاعته، غير أنى لا أعلم تأويل قوله شكرا لله. إذ لم يبن لى ما أشكره عليه خصوصا وإن كانت نعمه

تعالى على عبيده لا تحصى. فنمت كما أمرنى قهرا. وما استفقت إلى العصر فدرته وما وجدته. ثم لا أدرى أين ذهب حتى الآن. غير أن بعض الحجاج، تلك السنة أيضا، ذكر لى أنه لقيه، وفعل به مثل ما فعل معى ،وذلك حين جالسنى بالحائط المذكور تناول من الأرض عودا أو حجرا صغيرين وطوبا كذلك فيما أرى. فألقى الكل فى فمي. ففتحته طوعا له وخوفا منه. ثم إنه استحال كله سكرا فى فمي. فكدت أخرج عن حسي. لذلك قلت أفي يقظة أنا أم منام ؟

ثم قام عنى يدور الناس ساعة وأنا وحدى فى حيرة كبيرة مما شاهدته. فجاء إلى الثانية وقعد ثم أخذ، وأنا أنظر من الأرض ثلاث حصيات، قدر الفولة بيض من حصباء الأرض.فجعلها أيضا فى فمى فاستحالت كالأولى سكرا. فزال عندها الشك بالعيان والذوق. ثم ناولنى أحجارا وأمرنى بصرها. وأن لا أحدث بذلك، ولا أفتح الصرة حتى أجاوز البحر وإلا قتلني. ففعلت بعض ما أمرنى به لآكله ففتحت الصرة لا أدرى لعذر أو غيره قبل بلوغ المحل، ففاتنى مقصوده رحمه الله. ومن العجب أن كل ما جاور فى أوعيتى تلك الأحجار فاصفر وسرى فيه ذلك سريان الدهن

بالزعفران. ولما بلغت مكة وهى معى سرقت فى جملة ما عندي. على أنه لا درهم فى ملكى يومئذ وأنا معى بضاعة أمانة لبعض الصعاليك من مصر، فاختلسها من بيت صاحب الذى أنا ضيفه من يكافيه الله تعالى على خيانته من أهل مكة. وقد كان المجذوب المذكور راودنى عليها فلم تسمح له بها نفسي. لأنها ملك غيرى جريا على حكم الشرع، وهو على الحقيقة فذهب الله بها. وكأنه علم بذلك أو عقوبة منه تعالى خاصة بخاص فى وقت دون آخر. لكل مقام مقال (وما فعلته عن أمرى) شاهده، ولى أنا اسوة بموسى عليه السلام (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) وكفى.

الإصليت الخريت
أبو سالم العياشى
(١٦٢٨-١٦٧٩)

تعتبر هذه الرحلة هى الثالثة بعد رحلتين سابقتين له إلى الحجاز ١٦٤٩ و١٦٥٣ ،

وقد دامت رحلته الأخيرة سنتين ١٦٦١-١٦٦٣ .

ولما كان آخر الليل بعثنا بعض إخواننا وأصحابنا فتقدموا مع من تقدم إلى القاهرة ليرتادوا لنا منزلا قرب الأزهر ،لأن كثيرا من الحجاج ينزلون بطولون ليقربوا من الرملة محل سوق الدواب وما يحتاج إليه من أمور السفر، ومن كان ذا تجارة ينزل بالوكائل. ونحن لا نعدل بقرب الأزهر مكانا، ونزول الوكائل لا يليق بنا لضيق بيوتها ونحن جماعة كثيرة، إذ لا يسعنا وأتباعنا إلا منزل واسع كثير المساكن جامع للمرافق. وكتبنا له إلى محبنا وأخينا فى الله الشيخ على الدمشيتي ليبذل مجهوده فى ذلك.

ولما أصبحنا ارتحلنا وسلكنا بين القرى ولم نأخذ طريق البر لبُعدها. وما كان يحمل الناس عليها فى غير هذا الوقت إلا فيضان النيل، فلا يتمكن المارون من السلوك فيما بين القرى من كثرة المياه، وفى هذا الوقت وجدنا البلد يابسا لا ماء فيه، إذ لم يأتٍ وقته، ثم مررنا بالمنصورية ثم بقرية وسيم ثم بغير ذلك من القرى، إلى أن نزلنا خارج أنبابة ضحى يوم الأحد الخامس والعشرين من رمضان الموفى خمسين يوما من خروجنا من بلد سيدى أحمد زروق آخر العمران من عمالة طرابلس، ولم تكن هذه المدة كلها مشيا، بل فيها نحو الخمسة أيام إقامة، وخلص للمشى خمس وأربعون يوما من مسراتة إلى مصر، ولم يعهد قطع هذه المسافة فى مثل هذه المدة إلا فى النادر، وأعاننا على ذلك مع تيسير المولى جل جلاله اعتدال الهواء وطول النهار مع وجود الكلأ وشبع الإبل، وكنا نقطع هذه المسافة قبل هذه تارة فى شهرين وتارة فى شهرين ونصف، وربما مكثنا فيها إذا كان فصل الشتاء ثلاثة أشهر، ولما نزلنا بأنبابة تسارع الناس لشراء الفاكهة واللحم وطعام الحاضرة لبُعد عهدهم بذلك.

وانبابة هذه مدينة على ساحل النيل لها أسواق ووكائل ومساجد على هيئة ما فى القاهرة، وهى بالجانب الغربى فى مقابلة مدينة بولاق بالجانب الشرقي، وأقمنا بها يومنا ذلك فى أرغد عيش شبعا وريا، وكيف لا ونحن على ساحل النيل الذى هو اشرف الانهار الأربعة الخارجة من الجنة، وأثر بركته ظاهرة للعيان فى مائه وترابه وقراه ومدائنه بحيث لا يوجد بلد أوسع مزارع وأكثر خصبا مع اتصال العمارة نحو الشهر من هذه، بيد أنها لها مزيد اختصاص بمضاعفة الوظائف الجورية على الرعية بحيث تملك رقابهم فضلا عن أموالهم، ولا يجدون عن ذلك محيصا، بمنعة أو فرار، حتى إن أحدهم لو أراد أن يتخلى عن السبب ويترك الزراعة والفلاحة لم يتركوه، ولو فر لاتبعوه حتى يأتوا به أينما كان، حتى استفاض عند العمال الفسقة أن ثلاثة لا تقبل منهم شفاعة شافع، فيعدون منهم من يريد أن يتخلى عن الزرعة والفلاحة، (قاتلهم الله أنى يؤفكون)، لا هم ينصفون ويخففون عنهم من المظالم، ولا هم يتركونهم يذهبون حيث شاؤوا يسيحون فى الأرض يرزقون كما ترزق الطير بالالتقاط من نبات الأرض وخشاشها فتغدو خماصا وتروح بطانا، اتخذوا مال الله دولا وعباد الله خولا، (والله من ورائهم محيط)، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وبالجملة فمصر أم البلاد شرقا وغربا، لا تستغرب شيئا مما يحكى عنها من خير أو شر ومصداق ذلك ما حدثنيه بعض أصحابنا من التجار فى سنة أربع وستين قال: لما دخلت مصر فى حدود الخمسين سكنت فى بعض الوكائل، وكان من قدر الله ان اجتمعنا فى محل واحد جماعة منا فلان وفلان تجار، وفلان طالب علم، وفلان ممن يميل إلى طريق الفقر، وفلان وفلان من أهل المجون، ذكر كلا بأسمائهم، قال فإذا أصبحنا تفرقنا كل واحد يغدو لحاجته، فإذا جن الليل جمعنا المنزل فنتحدث بما رأينا، فيقول التاجر: ما رأينا مثل هذا البلد فى التجارة فأهلها كلهم تجار، ويحكى من ذلك حكاية ما شاهد، ويقول الفقيه مثل ذلك والفقير مثل ذلك وذو المجون مثل ذلك، وما ذاك إلا لكثرة أجناس الناس فيها فمن طلب جنسا وجد منه فوق ما يظن، فيظن أن غالب أهل البلد كذلك.

وبالجملة فأهلها لهم عقول راجحة، وذكاء زائد، فمن استعمله فى الخير فاق فيه غيره ، ومن استعمله فى غيره فكذلك، وقد ذكر ابن خلدون فى كتابه: كتاب منتهى العبر ان بعض ملوك المغرب سأل بعض العلماء ممن حج عن مصر

فقال له: أقول لك فيها قولا واختصر، من المعلوم أن دائرة الخيال أوسع من دائرة الحس، فغالب ما يتخيله الإنسان قبل رؤيته إذا رآه وجده دون ما يتخيله ومصر بخلاف ذلك؛ كل ما تخيلته فيها، فإذا دخلتها وجدتها أكثر من ذلك. وسئل آخر عنها فقال: كان الناس فيها قد حشروا إلىٰ المحشر لا نرى أحدا يسأل أحد، كل واحد ساع فيما يرى فيه خلاص نفسه. [...]

عن رحلة : ماء الموائد
(الرحلة العياشية إلى الديار النورانية)
أبو العباس الدرعى
(١٦٤٧م- ١٧١٧م)

انطلق أبو العباس أحمد بن ناصر الدرعى فى رحلته الحجازية يوم الخميس ٢١ يوليو ١٧٠٩، وقد استغرقت، فى مجموعها، خمسة عشر شهرا وستة أيام، قضى منها ذهابا فى القاهرة ستة أيام ؛ وإيابا تسعة وثلاثين يوما. عاد الدرعى إلى المغرب يوم ١٩ أكتوبر ١٧١٠ .

رحلة الذهاب

ولما حملنا أمتعتنا التى عبرنا بها مع الدرابيك، تقدمنا أمام ذلك للمدينة، يسر الله لنا ولجميع إخواننا كل مئونة. فدخلنا القاهرة وقد تعالى النهار، وبقى للظهر نحو ساعة ونصف، وأممنا منزلنا بالبلد قانيين دارا اكتراها لنا التاجر الشكور: الحاج محمد الشريبى ، وسعتنا وتعلقاتنا وجماعة

من أصحابنا (جزى خيرا، ووقى ضيرا)، وبلغه الله غاية المنى، وأعاذه من فتنة الغناء، وأراحه من الكد والعناء، وأقمنا بها الأربعاء والخميس والجمعة والسبت والأحد. والناس فى هذه المرة فى شدة ما يكون من التشمير والجهاز، والاستعداد لدرب الحجاز. وعزمنا على الرحيل يوم الاثنين، فورد علينا التوارك ليلا، وكلفونا الإقامة لقضاء مآربهم، فأقمنا لهم جبرا لخواطرهم، ووجدنا مصر، فى هذه السنة، فى عافية ورخص أسعار، وسلامة من الأمراض، على أنها قلما تخلو من مرض وموت ؛ وقد كنا وجدنا بها فى رجعتنا من الحرمين الشريفين، عام سبعة وتسعين، وباءً شنيعا، ذريعا، مات به جملة وافرة من أصحابنا، تقبلهم الله أحسن قبول.

وقد ذكر شيخنا: أبو سالم عن بعضهم: أن الوباء وقع مرة بمصر وكثر الموت حتى كان يدفن فى اليوم الواحد أربعون ألفا، فهَمَّ الباشا وأتباعه بالخروج من مصر والفرار، لما شاهد من كرة الموت. فلما فشا خبر إرادته الخروج، طلع عليه رجل مسن من أهل التجربة والرأي، فقال: (بلغنى أنك تريد الخروج فما الذى يخرجك؟).

●●●

فـإذا كـان اليـوم الحـادى والعـشـرون من شـوال، خـرج المحـمل من القـاهـرة. وهذا اليـوم، هو يوم خـروج المحـمل الخروج الكبير الذى هو من ايام الزينة، ويجتمع له الناس من أطراف البلد إلى أن ينزل خارج باب النصر بالعادلية. فيقيم هناك إلى اليـوم الثـالث والعـشـرين، فـيـرحل من هناك إلى البركة، ويخرج أمير الحج وجميع عسكره، ويخرج مع الركب من المشـيعين، ومن العساكر والأمراء أضعـافـهم، فتنصب الأسواق هنالك، فيخرج غالبا الباعة والمسببون بحيث يوجد هناك ما يحتاج للسفر بأرخص من سعر مصر. ويقيمون هناك إلى آخر اليوم السابع والعشرين. وأما المغاربة فلا يخرج منهم إلا من قصده الذهاب مع المصري، مؤثرا مشى الليل على مشى النهار، مستسهلا مشقة السهر بالليل على حر النهار، سيما فى أيام الصيف. وإنما يؤثر ذلك غالبا صنفان من الناس: أهل الثروة والقوة من الناس لهم شقاذف، ومحامل، وهوادج، ينامون فيها بالليل على ظهور الإبل ويصبحون بالنهار كأنهم مقيمون. ولا شك أن هذا أولى لهم من السير نهارا، إذا أوطنوا نفوسهم على بذل الدينار والدرهم للجمال، والعكام، والسقاء، والطباخ، وقائد الإبل

وغيرهم، وهم فى ذلك متعاطون من النوم على ظهور الإبل ما تأباه الشريعة السمحة المبنية على الرحمة والشفقة، والصنف الآخر: الفقراء الذين لا إبل لهم ولا أمتعة، فيسترفقون عند المصرى بالماء المسيل فى أوقات من الليل وعند الرحيل نهارا، مع ما ينالهم من أهل الثروة من التصدق بفضل الأطعمة. إلا أنهم يكابدون مشقة عظيمة فى المشى والسهر ليلا، وفى النهار يشتغلون بالسعى على ما يفوتهم: لا يكادون ينامون إلا قليلا. وأما المتسوقة والباعة والجمالون من فلاحى مصر فلهم قوة وفرط على مكابدة أعظم من ذلك: فبالليل يسيرون، وبالنهار يعملون فى البيع والشراء والسقى والطبخ، وعلف الإبل وإصلاح أقتابها، ومداواة جراحاتها، فلا يكادون ينامون حتى القليل.

قال شيخنا أبو سالم: (وقد أخبرنا عن بعض من اعتاد السفر فى درب الحجاز من الجمالين أنه لم ينم من يوم خرج من مصر، إلى أن رجع إلى مصر، مائة يوم، وهذا كالمحال عادة، فإن صح، فهو من أغرب الغرائب، ولعله كان لا يضطجع للنوم على هيئة القاصد لذلك، بل يغفى إغفاءة تارة على ظهر بعير، وتارة فى وقت انتظار حاجة، أو فراغ من

أكل أو ما يضاهى ذلك، فإن كان مثل هذا فلا يستبعد) انتهى.

وأما من لم يقصد الذهاب مع المصرى من المغاربة، فلا يخرجون إلى اليوم السابع والعشرين من شوال، وينزلون بالبركة، عند رحيل الركب المصرى أو قبله بقليل.

قلت: وهكذا كانت العادة: وقد يؤخرون، فى هذه الأواخر بحسب تجهيزهم وتهيئة زادهم وما يحتاجون إليه، لمسافة الدرب أمامهم، والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الرحلة الناصرية
ابن مليح القيسى
(النصف الأول من القرن ١٧م)

كانت رحلة ابن مليح القيسى فى الفترة ما بين ١٦٣٠و١٦٣٣م حيث خرج من مراكش فى رحلة طريفة فى القرن السابع عشر. رحلة ستدوم سنتين ونصف وستة أيام.

بلاد مصر والقاهرة

فكان دخولنا لمصر ضحو يوم الجمعة الثالث عشر من شوال إحدى وأربعين وألف، فيالها من قاهرة ما أحسنها، وأبدع جمالها، وأوصافها، أوفى البلاد طهرة، وأزكاها فطرة، وأفسحها رقعة، وأمرعها نجعة، وأقومها قبلة، وأوسعها دجلة، وأكثرها نهرا ونخلة، دهليز البلد الحرام، وقبالة الباب والمقام، وأحد جناحى الدنيا، والمصر المؤسس على التقوى، ذو المشاهد المشهورة والمساجد المقصودة، والمعالم المشهورة، والمقابر المزورة، والآثار المحمودة، قد جمعت اشتات المحاسن. ويكفى فى وصفها ما ذكر الله تعالى

فى كتابه العزيز من قوله تعالى (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) وقوله تعالى (لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض) وقوله تعالى، (وإن يظهر فى الأرض الفساد) وقوله تعالى (أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ) إلى قوله (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده) إلى قوله (عسى ربكم أن يهلك عدوه ويستخلفكم فى الأرض) المراد بالأرض فى هذه الآيات كلها مصر، وعن ابن عباس -رضى الله عنه - وقد ذكر مصر فقال، سميت مصر بالأرض كلها فى عشر مواضع فى القرآن، قال الحافظ، بل فى اثنى عشر موضعا أو أكثر، وقال تعالى (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها)، قال الليث بن سعد هى مصر بارك فيها بالنيل، حكاه أبو حيان فى تفسيره، وقال القرطبى فى هذه الآية، الظاهر أنهم ورثوا أرض مصر القبط وقيل هى أرض الشام ومصر، قالها أبواسحاق واقاده وغيرهما، وقال الله تعالى فى سورتى الأعراف والشعراء (يريد أن يخرجكم من أرضكم) وقال تعالى (إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها) وقال تعالى (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم)

قال الكندى. لا يعلم بلد فى أقطار الأرض أثنى الله عليه فى القرآن بمثل هذا الثناء، ولا وصف بمثل هذا الوصف، ولا شهد له بالكرم غير مصر، وقال تعالى (ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق)، وقال القرطبى، أى منزل صدق محمود مختار يعنى مصر، وقال، يعنى مصر والشام، وقال تعالى، (كمثل جنة بربوة) أورده ابن زولاق وقال تعالى، (أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض) قال قوم هى مصر، وقواه ابن كثير فى تفسيره وقال تعالى (وقدر فيها أقواتها) وقال عكرمة منها أرض القراطيس بمصر وقال تعالى (ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد) وقال محمد بن كعب القرظى هى الاسكندرية.

ذكر المارستان بالقاهرة

وفى داخل القاهرة المارستان، وهو قصر عظيم من القصور الرائعة حسنا وجمالا واتساعا، لم يعهد مثله فى قطر من الأقطار أحسن بناء ولا أبدع إنشاء ولا أكمل انتهاء فى الحسن والجمال، قد رويت جوانبه وجمعت فى شرعته السارية والغادية، فها هو حسنه بادى الغرر وضاح، منبجس بالماء القراح...

نقل عن الشيخ العالم المؤرخ شمس الدين الكركى أنه كان يعمل فيه فى كل يوم من المرضى الداخلين إليه والناهضين الخارجين منه أربعة آلاف نفس، وتارة يزيدون وتارة ينقصون، ولا يخرج منه كل يبرأ فيه من مرضه حتى يعطى إحسانا إليه وإنعاما عليه كسوة للباسه ودراهم لنفقته، وله أطباء يعالجون المرضى فيه وفيه من قناطير الأشربة المقنطرة، والأكحال الرفيعة المصيبة التى تسحق فيها دنانير الذهب وفصوص اليواقيت النفيسة وأنواع اللؤلؤ الثمين شيء يهول السمع، ويعم ذلك الجمع. إلى ما يضاف إلى ذلك كله من لحوم الطيور والأغنام على اختلافها، وتباين أصنافها مع ما يحتاج إليه كل واحد لفراشه، ومعالجته من غطاء ووطاء، ومشموم ومدرور وشبه ذلك، على ما هو معد على إكماله هناك، وما ليس مثله إلا فى منزل أمير أو خليفة وقد رتب على ذلك كله من الأطباء الماهرين كل من هو فى معالجته موثوق بعدالته، مسلم له فى معرفته، غير مقصر فى تصرفه وخدمته، ولم أطلقت العنان فى الكلام على هذا المارستان، لم يف به مجلد، وله بابان أحدهما منفتح لسوق السفارين، والآخر بزنقة البطانية. بداخل الباب الأول مسجد مشيد الأركان،

عظيم البنيان، ذو مياه جارية، وبرك مملوءة، وتقام فيه خطبة الجمعة دائما مستمرا.

وبمصر العتيق مارستان آخر على شكله، ولكن ليست حاله كحاله، فما كل صهباء خمرة ولا كل سوداء تمرة ولا كل حيوان انسان ولا كل مارستان مارستان.

أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب
أبو زيد الشاوي الغنامي
(وصل إلى مكة يوم ٣ يوليوز ١٧٢٩)

الفقيه عبد الرحمن بن أبي القاسم الشاوي المزمزي الغنامي، أحد قضاة الشاوية في القرن الثامن عشر، وقد رحل إلى الحج بعد سنتين على وفاة المولى إسماعيل ودخول المغرب في صراع على السلطة بين أبنائه ، مما خلق حالة من الفوضى .

وقد وصل الفقيه الشاوي إلى مكة يوم الأحد ثالث يوليوز ١٧٢٩ . أما دخوله إلى مصر فصادف يوم ٨ صفر ١١٤٢هـ الموافق ٢ شتنبر ١٧٢٩ .

في طرق العودة من الحج

وبقينا هناك ساعة زمانية تستريح الناس والبهائم وبعدها ركبت الناس ولازلنا نمشي تلك الليلة إلى وقت الضحى،

دخلنا مصر على غاية من السرور يوم الأحد ثامن صفر سنة اثنين وأربعين ومائة وألف. دخل الركب المغربى والمصرى مختلطين دفقة واحدة ،فكان يوما عظيما ومشهدا جليلا خرج أهل مصر بكبيرهم وصغيرهم ينعقون الركب، ودخلنا حامدين الله شاكرين بما آتانا الله من فضله لا أشكر إلا الله .ونزلنا بوكالة بموضع يسمى بالبدفنين ونزلنا فيها حوائجنا وما يشغلنا وقد أقمنا بها اثنين وعشرين يوما لازلنا نزور بها من آل – النبى صلى الله عليه – وسلم من السادات الصحابة رضى الله عنهم أجمعين ومن التابعين والعلماء والأولياء. بهذه البلدة المذكورة تقبل الله ذلك منا بفضله وكرمه وبوده إنه قريب مجيب، فلما حان وقت صلاة الظهر قدمت إلى جامع الأزهر فوجدنا بها مجالس العلم كثيرة، منهم من يقرأ التفسير ومنهم من يقرأ الحديث جلهم يقرأون كتاب الإمام أحمد بن حنبل – رضى الله عنه – ومنهم من يقرأ النحو .الكثير منهم حنفية وفيهم المالكية ثم الشافعية وأما الحنابلة فهم نادر هناك ومذهبهم ضعيف . وبالأزهر الناس قليل، ورأيت هناك علماء يقرؤون مختصر سيدى خليل... كتاب الإمام الخرشى رضى الله عنهم.

ذكر أخى فى الله الفقيه العلامة الدراكة الفهامة مدرس جامع الأزهر سيدى أعمر الطحلاوى رضى الله عنه ونفعنا ببركاته أن العمارى مشتغل بالتضيف بلغ فيه إلى قوله تبارك وتعالى "ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون". قال لى هذا السيد الجليل إن كمل هذا التفسير فهو عنده أحسن من البيضاوى وبلغ فى مختصر سيدى خليل باب الصلح وكثير ما مدح وأثنى عليه بأن يكمل عليه بجاه النبى وآله.

وحضرت مجلس الشيخ سالم النفراوى فوجدته يقرأ مختصر شيخ خليل بلغ فيه إلى باب العتق وهو رجل ضرير وله صوت جهير يجلس بوسط المجلس تدور عليه الحلقة، والله عددت أربع سوارى داخلين بوسط المجلس من كبره وهو الآن شيخ الجماعة بمصر عند المالكية وإليه ترجع الفتوى بجامع الأزهر ورأيت هناك فقيها يقرأ فى مذهب أبى حنيفة يُقرِئهم بالعربية ويفسر لهم بالتركية فوقفت عند سارية بقرب المجلس فقال لى الفقيه: ما حاجتك ؟ فقلت له مالى حاجة .فضحك وقال: ويخلق ما لا تعلمون. ورأيت مجلسا كبيرا فتقدمت إليه فوجدت الشيخ يقرأ التسهيل ووجدت هناك امرأة جالسة تقرأ فسألت عنها فقيل إنها تحفظ التسهيل ومختصر سيدى خليل

من الكتب وهى ملثمة وحين تفرغ من القراءة تقدم إلى دارها تُقرئ النساء النحو والفقه والتوحيد وغير ذلك من العلوم. وطوال مدة إقامتنا بهذه البلدة نجدها بالمجلس وكان يخبر عن غيرها من النساء إخوانا فى الله الفقيه العلامة الدراكة الفهامة سيدى أعمر الطحلاوى - رضى الله عنه - قال لى هنا ثلاثة نساء يحفظن متن سيدى خليل وجل كتاب ابن الحاجب.

وقد زرنا والحمد لله ما يتيسر من آل النبى - صلى الله عليه وسلم - ومن السادات الصحابة رضى الله عنهم أجمعين ومن التابعين والعلماء والأولياء يقبل الله ذلك منا بفضله وكرمه... فمن آل النبى صلى الله عليه وسلم سيدنا زين العابدين رضى الله عنه وسيدتنا نفيسة الطاهرة رضى الله عنها وسيدتنا رقية رضى الله عنها وسيدتنا أم كلثوم رضى الله عنها وسيدتنا زينب رضى الله عنها، ومن السادات الصحابة رضى الله عنهم أجمعين سيدنا عمرو بن العاص رضى الله عنه وسيدنا عقبة بن عامر رضى الله عنه والسيدة فاطمة بنت جعفر الصادق رضى الله عنه، ومن التابعين الإمام صفى الدين رضى الله عنه ومن العلماء العاملين إمام المذهب سيدى محمد بن ادريس الشافعى رضى الله عنه ومعه

جماعة من أئمة الشافعية - رضى الله عنهم - ثم زرنا قبر القطب الربانى العارف بالله العمدانى العرب والعجم ومدينة مصر سيدى قاتباى رحمه الله ورضى الله عنه وله كرامات عديدة ومآثر حميدة .[...]

الدخول إلى الاسكندرية

هذا ما زرنا فى الوقت من الصحابة والعلماء والأولياء والصالحين بمدينة رشيد تقبل الله ذلك منا بفضله وكرمه وجوده إنه قريب مجيب، وبقيت بها المدة المذكورة ولازلنا بخير ونعمة شاملة، وسافرنا منها فى الثانى عشر من ربيع الثانى من السنة المذكورة بعد أن ركبنا بحر النيل فى نقيرة للرئيس محمد الصعيدى ، وقدمنا فيها إلى الإسكندرية إلى أن انتهى بحر النيل واختلط مع البحر المحيط المالح ،وصارت النقيرة تدور كدوران الدولب ، فارتهبت الناس خوفا من البحر إلى أن سلمنا الله تبارك وتعالى منه بكرمه وفضله ، وبلغنا لمرصة الإسكندرية عشية النهار، ونزلنا باسقالة المرصة ، وأتوا لنا اليهود يفتشون حوائجنا وما عندنا يريدون أن يقبضوا ثمنا معلوما يسموه بالمكترى، فمنحت اليهود من ذلك ، وأتى لنا واحد من الترك يقال له صنب صاحب المخزن ، فأخذ

حوائجى ومكنهم من اليهود وأدخلهم بمخزن معد للسلع فبقوا عنده ثلاثة أيام فأخبرنى بعض الناس أن نَقدمَ إلى مفتى الإسكندرية ونعلمه بما جرئ بأمرى ، فإن فيه الخير ويحب الغرباء ، قدمت إليه فأخبرته بحالى وبما نابنى مع اليهود ، فأشفق من حالى وضعفى وقال لى لا تنجو من هذا الظالم إلا إذا قلنا له هذا رجل فقيه حكيم وإنه إن لم تعط له حوائجه حتى يقع به أمر سماوى .فقال لهم اليهود أعطوا حوائجه ولا تقبضوا منه شيئا ، فاستخرجهم منه بحيلة جزاه الله عنا خيرا، وبقينا عنده ما شاء الله وكان يدرسنا وعرفنا بعلماء البلاد وبشريفها و مشروفها ، لازلنا معه فى نعمة شاملة وطعامه لم ينقطع عنا مدة إقامتنا بهذه البلدة فجزا الله عنا سيادته خيرا . وقد أقمنا بهذه البلدة المذكورة نحو خمسة وستين يوما ، لازلنا نزور بها من الأنبياء والصحابة والعلماء والأولياء تقبل الله ذلك منا بفضله وكرمه وجوده إنه قريب مجيب وبه أستعين . [...]

من رحلة : رحلة القاصدين ورغبة الزائرين

مخطوط بالخزانة الملكية تحت رقم ٥٦٥٦ في ٢٤ صفحة

محمد بن الطيب الشرقي

(١٦٩٨ - ١٧٥٦)

الأديب محمد بن الطيب الشرقي في رحلته الحجازية خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر، يروي مشاهداته في طريق العبور، وفي مصر تتفتح شهية الحكي والتأريخ . كانت له رحلتان إلى الحج ، الأولى سنة ١٧٢٧، أما الثانية والتي سيستقر فيها جوار الكعبة الشريفة فكانت سنة ١٧٣١.

استغرقت رحلة الشرقي الأولى ١٦ شهرا من فاس الى مكة ثم العودة الى بلاده.

ذِكْرُ دُخولنا لمصر القاهرة

ثم دخلنا ضحوة الجمعة إلى القاهرة، ذات المحاسن الظاهرة، والمزايا الباهرة، فألفَيْنا الحاج مسعُوداً اكترى لنا

محلاً فى الغورية، قريباً من الناحية الأزهرية، فأنزلنا أمْتِعَتَنَا فيه، وانطلق بنا إلى منزله الكريم الأهل المحفوف بألف ترحب وسهل وأهل، وأحضر لنا من أنواع الأطعمة ما لا نكادُ نقُومُ بحقّه ولا نستوفيه، وختم لنا بما فيه من الأشربة غاية الشهوة، وجرى على اصطلاح أهل هاتيكَ الأرض فى تأكيد حضور شرابِ البُنِّ المعروف عندهم بالقهوة، بعدما نوَّعَ لنا من الأطعمة المغربية والمصرية، وجمع منها بدوية وحضرية وإن كان أهل مصر بل وكذلك غيرهم من أهل الحرمين والحجاز والآفاق المشرقية كلها إنما يتكارمون بالقهوة التى لا يعرفها المغاربة ولا يعدونها فى الأطعمة ولا فى الأشربة ولا فى الأدوية ولا فى المشتهيات، والكلام فيها من حيث الحكم بالإباحة وعدمها طويل عريض واسع معلوم مشهور نظما ونثرا، وأكثر العلماء مائلون فيها إلى الإباحة وترشح قولهم بفعل أكثر الصوفية مع تورعهم فى المطاعم والمشارب لما اشتملت عليه من الفوائد التى منها إعانة على السهر فى العبادة والمطالعات الليلية، ومنها أنها تزيل ما يحصل فى الرأس من التدويخ بسبب السهر أو خلو المعدة صباحا، فإذا شربها الإنسان وجد فى أعضائه نشاطا عظيما وأحس بخفة

فى رأسه زائدة كما شاهدنا ذلك منها ولاسيما فى السير ليلا بالحجاز، ومنها أنها تهضم الطعام وتذهب بثقله على المعدة ومنها أنها تنفع فى الحر وتبرد حرارة العطش فلا يحس شاربها بعطش ولا حَرٍّ ولا غير ذلك، وكونها باردة هو المتداول بين الناس، ولكن قال الشيخ داود الأنطاكى فى التذكرة أن الْبُنَّ حار فى الأولى يابس فى الثانية. قال : وقد شاع برده ويبسه وليس كذلك؛ لأنه مر وكل مر حار ويمكن أن يكون القشر حارا أو نفس الْبُنِّ إما معتدل أو بارد فى الأولى والذى يعضد برده عفوصته، وذكر له منافع منها أنه مجرب لتجفيف الرطوبات والسعال البلغمى والنزلات وفتح السدد وادرار البول، قال: وقد شاع الآن اسمه بالقهوة إذا حمص وطبخ بالغا بالماء وهو يُسكِّنُ غَلَيَانَ الدم وينفعُ من الجدرى والحصبة وذكر غير ذلك مما محله غير هذا المختصر، وقد كان ورد عليَّ ونحن فى الحرم الشريف سؤال يتضمن أبحاثا نفيسة تتعلق بالقهوة وأحكامها فجمعت فى ذلك تأليفا مستقلا حافلا سميته (الاستمساك بأوثق عروة فى الأحكام المتعلقة بالقهوة) ورتبته على مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، وأبديت فيه من نفيس الأبحاث ودقيق الأنظار ما يشهد بتحريره عند

مشاهدته جميع النظار فعدا عليه ذلك السارق وأخذه فيما آخذ من القراطيس والمهارق تقبله الله على التلف، وعوضنا فيه وفي غيره خير خلف.

وقد صحح بعض العلماء أنها تحرم على من طبعه السوداء وتكره لمن طبعه الصفراء وهي نافعة لصاحب البلغم، قلت: وكذلك غيرها من أنواع المطعومات والمشروبات يحرم تناول ما يضر منه على من علم أنه يضره، ولا يكون ذلك موجبا لتحريمه مطلقا، كما لا يخفى. والحاصل أن الشاربين لها كما قال الشيخ أبو سالم فريقان : فريق يشربونها في أماكن مُعدة لذلك من حرفة قَلَّمَا تخلو من لهو وحضور من لا يحل حضوره من الجواري، ومن في معناهم من المراد مع آلات الطرب والغناء فهؤلاء الحامل لهم على شربها اتباع الأهواء والتلذذ بها قارنها من الأمور المذمومة فينبغي أن يقال إنها محرمة في حق هؤلاء لا لذاتها بل لما قارنها من الأمور المحرمة وهذا لاَ خصوصية له بالقهوة بل وكذلك الحليب المجمع على حلِّيَّتهِ إذا قارنتْهُ هذه الأمور المحرمة المذمومة شرعا، فإنه ينبغي أن يمنع الاجتماع عليه بمثل هذه الهيئة الفاسدة، إذ ليسَ شربُهُ هو المقصودُ منهَا بلْ ما حفَّ به من

المناكر العظيمة المبْنية على غير قاعدة، والفريق الثانى : يشربونها فى مساكنهم وحوانيتهم وفى مطلق السوق من غير تهيئة ولا احتفال ولا جلوس مع الفريق الأول، فهؤلاء الحامل لهم عليها الفهم لها حتى أنهم يتضررون بتركها ويحدث لهم تركها ضررا فى أبدانهم، وقد يحملهم على شربها تحصيل ما أشرنا إليه من منافع، وغالب ما يستعملونها مع طعام خفيف من كعك أو كسر خبز أو نحو ذلك هذا مع خفة مؤنتها ؛ إذ بفلسٍ واحد يشرب من ذلك ما يكفيه مع تيسرها فى جميع الأوقات، من غير احتياج لكبيرِ مؤنة ولا مقارنة إدام أو ملح أو ازار أو خضر أو غير ذلك مما يحتاج إليه غالب الأطعمة ويزاد على ما ذكر من منافعها وهو أكبرها عندهم أنها تقوم مقام القِرَى للضيف، بحيث لا يستحيى أحد فى تقديمها للباشا فمن دونه، ويقوم ذلك عندهم مقام ما يتكلفه المرء عندنا من الأطعمة الكثيرة، الفاخرة المنوعة التى تبلغ قيمتها الدنانير الكثيرة ودرهم واحد يقوم مقام الدنانيرلا يكرهه أحد على أنه لو قدم لأحد هناك أىْ طعام لم تكن معه فكأنه لم يقدم له شيء وإن قدمت هى وحدها كفت (...) .

●●●

ولَّما قـضـينا الغـرض من جـمـيع مـا عَنَّ من الأطعـمـة والأشـــربة وعـــرض، تَوَجَّـــهْنَا للجـــامع الأزهـر،الأنور الأزهر،فَصَلَّيْنَا به صلاة الجمعة وَ نِلْنَـا بالحضور فى حضرته الفضْلَ أجمعه، ثم شرعنا نَجُـوبُ بعضَ مشارعها وَ نَجِدُّ أديم جادتها وشارعـها، فإذا هيَ أمُّ العـجائب، ومُعـجزةُ كل جائلٍ وجائب، جازتْ كل أعجوبة، واتسعتْ حتّى حازتْ من الأرض مـا لا يَقدرُ أحدٌ أن يجوبه، وجـمعتْ أصنافَ الخلائق، وتعدَّدَ فيها اللائق وغير اللائق، فـهيَ أمُّ الأمصار بُعداً وقُرْبا، فلا يُستغرَب شيء ممَّا يُحْكى عنها، ولا يستوفى أحدٌ الغـرض منها، ومصداقُ ذلك ما حدَّثَ به بعضُ التُّجار قال: لمَّا دخلتُ مصرَ فى حدودِ الخمسين سكنتُ فى بعضِ الوكائل، وكان من قَدَرِ الله أن اجتمَعْنَا فى محل واحد جماعة، منَّا فلانٌ تاجرٌ وفلانٌ طَالبٌ وفلانٌ صوفيٌّ وسمَّاهُم قال: فإذا أَصبَحْنَا تفرَّقْنا كلٌّ واحدٍ يغدُو لحاجته، فإذا جَنَّ الليلُ جَمَعَنَـا المنزلُ فنتحدَّث بمَا رأيْنا فيقُولُ التَّاجرُ مارأيتُ مثلَ هذه البلدة فى التِّجارةِ فـأهْلُهَا كلُّهُم تُجَّارٌ، ويقـولُ كُلٌّ مثل ذلك،وما ذلك؛ إلا لكثـرةِ أجْنَاس النَّاس فيها، فمن طلبَ جنساً وجدهُ، وبالجُملة فأهْلُهَا لهُمْ عقولٌ راجحةٌ وذكاءٌ زائدٌ، فَمَن استعملَهَا فى الخَيْرِ فاقَ

فيه غيْرَه، ومن استعملَهَا فى الغير فكذلك، وذكر ابن خلدون فى كتابه مشهد العبران بعض ملوك الغرب سأل بعض العلماء ممن حج عن مصر، فقال له أقول لك فيها قولا وأختصر من المعلوم أن دائرة الخيال أوسع من دائرة الحس فغالب ما يتخيله الإنسان قبل رؤيته إذا رآه وجده دون ما تخيل، ومصر بخلاف كل ما تخيلت فيها، فإذا دخلتها وجدتها أكثر من ذلك، وسئل آخر عنها فقال : كأن الناس فيها قد حشروا إلى المحشر لا ترى أحداً يسأل عن أحد، كل واحد ساع فيما يرى فيه خلاص نفسه وجميع ما يحتاج إليه من أحوالها مستوفى فى تواريخها، وأحسنها حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة تأليف الإمام السيوطى - رضى الله عنه -- فمن أجاد مطالعته لم يفته من أخبارها إلا المعاينة...

الرحلة الحجازية
أبو عبد الله الحضيكى
(١٧٠٦-١٧٧٥)

أبو عبد الله محمد بن أحمد الحضيكى السّوسى، تضلع فى العلوم وارتحل إلى الشرق فحج وزار أواسط المائة الثانية عشرة بعد الألف فكتب رحلته، وأخذ من علماء الحرمين واليمن والهند والعجم والشام وأقام بمصر سنين للأخذ من فطاحلها، كما يقول عنه صاحب المعسول .كما ترد إشارة فى الصفحات من رحلته أنه كان موجودا بمصر سنة ١٧٤٠م .

ثم نزلنا بعد الغد ريف مصر، ليلة خروج المحمل، وخروجه كل عام على الدوام، فى السابع والعشرين من شوال والله أعلم. وقد قطع الركب بَرْقة فى نيف وخمسين يوما فى شدة البرد، وكثرة السرى والسهر فى الليل، ورب ليال لا ينزل الركب فيها إلا قدر ما يتعشى، وكانت الرجالة المشاة ،الذين لا يركبون، أشد الناس مقاساة للشدة والمشقة فيها، والله

يجازى الكل بما عمل، فلما أشرف الناس على مصر وهى وراء النيل إلى جهة الحجاز، ورأوا النيل، ونظروا إلى خُضرة الأجنة والبساتين، تهللت وجوههم بالسرور،ونسوا ما قاسوه وكابدوه من المشقة والسهور،وأزهرت ذوات الصدور،لما دنت إلى مواضع النبوءة والنور، وذهب منها كل ما أكنته من الأضغان والأحقاد، وتجلت شموسها فلا كدر ولا أنكاد،وبرئت الأجساد من الأوجاع والأسقام،لما بلغت مواطن الاستراحة والاستقامة،"ادخلوا مصر إنْ شاء الله آمنين"فلله الحمد،وكنا به مؤمنين، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم.

فبتنا ليلتنا تلك فى قرية من قرى الريف يقال لها المنصورية،فرحين فى رغد عيش، وهناء مع أهل البلد،فلما انصرم الليل صلينا وغلسنا الرحل، وبادرنا ركوب النيل، فجاءنا رجل من قبيلة هلالة ،سكن هناك بأولاده مع العرب بالريف ،فاستودعنا، فأودعتُ عنده بغلتى وجَملى ،فقطعنا النيل،ونزلنا مدينة بلاق،فلما استقر بنا المنزل، جعل الناس يلمون شعثهم وزينتهم، حتى إذا اطمأنَّ بهم المكان شرعوا يتزودون لسفر الدرب والحجاز، وهبت نسيم الحرمين ،فاهتوت

الأعالي والأعجاز، واستنشقتها القلوب، فلم يتمالكوا أن برزوا للانتياب والانتداب، وقال قائل: هذا مناد ينادي بالرحيل في الاقتراب، واستبق الناس الأبواب، وسارعوا لمرضاة رب الأرباب، واختلسنا يومئذ الزيارة من مشايخ الأزهر، فيا له من زهرة الدين ونضرته وقدره. وما نسينا حظ التعلم فيه والجوار، إذا شفيت الصدور بالسلام على سيد الأبرار والأخيار،منبع الأسرار والأنوار، صلى الله عليه وعلى آله مادام الليل و النهار.[...]

ثم منه ونزلنا بئر الصعاليك،ثم ونزلنا النخيل بندرا بأرض التيه، ثم منه ونزلنا مكانا يسمى وادي التيه، ثم منه ونزلنا قرب عجرود. ثم صبحنا عجرود. وبه ملاقي الناس ومعهم الفواكه، والأطعمة، والخيرات، وأول منهل لقينا فيه ملاقي أهل مصر بندر الوجه،ونزلنا يومنا ذلك دار الحمراء.

ثم منها وصلينا الظهر بالبركة، وبتنا فيها فرحين مرحين، فلما انفلق الصبح غلسنا الرحل، ودخلنا مصر ضحوة، وقد قطعنا الدرب سالمين والحمد لله، وبقي الناس يتنعمون بمصر إلى أن عزموا على الرحيل، وخرجوا من المدينة،وضربوا أخبيتهم على شاطئ النيل، تحت النبابة قرية كبيرة، مقابل

بلاق إلى جهة الشمال، وهنا مات صاحبنا الحاج محمد اللكوسى، والشيخ عبد الواحد الصنهاجى، رحمنا الله و إياهم والمسلمين جميعا .[...]

ولا تزال طائفة من أهل العلم والدين فى مصر كما نُصَّ على ذلك إلى قرب الساعة. وقد شاهدنا ذلك عيانا سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف، وقد "ضَعُف الطالب والمطلوْب"للعلم يومئذ فى المغرب، فلا ترى من يعتنى به اعتناءً، وأما جامع الأزهر هذا، فمشحون اليوم بالعلماء، وأهل الحق والدين ، ومازالوا قائمين بوظائف التدريس العلم، والتحقيق، ويقصد هذا الجامع للعلم من اليمن، والحرمين الشريفين، والعراقين، والشام، والمغرب، ليس فى الدنيا بجميعها مثله علما،على ما شاع وذاع عند الكافة والخاصة.

وناهيك بذلك جامع، يشتمل على نحو من ثلاثين مجلسا فى وقت واحد،كلها فى الفقه، وفى المشايخ أولئك من له خمسة دروس بين الليل والنهار، ولكن لا عجب فى ذلك، وهم فى أقرب مكان من المغرب إلى ينبوع الحكم والعلوم، وعباب الأسرار والأنوار والفهوم، صلى الله عليه وعلى آله، ما دامت الأقتاب على السنام، وفى محل سَلف فيه السلف الصالح،

والخلف الفالح، والنسل الناجح، كالإمام الأعظم صاحب رسول الله صل الله عليه وسلم، سيدنا عمرو بن العاص،الذى هو أعقل العرب، وفاتح إقليم مصر،وإمامنا الأفخم سيدنا عقبة،صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم،الذى تفوح تربة القرافة وجبلها بنفحة طيبة منه.



من مات فيها فهو مغفور له   فمن الجنان إلى الجنان ينقل

كأنها بدر والنيل حولها هالة، أو شمس فى وسط السماء ليس عليها سحاب أو غلالة، وكأن السماء نثرت على أغصانها النجوم، وهى دار ملك وخلافة، وسرير سلطنة ورتبة أنفة، ومسكن علماء أعلام، ومجلس قضاة وحكام، ومقر صلحاء وعباد، ومقر صوفية وزهاد، قال ابن الفارض :

وطنى مصر وفيها وطرى   ولنفسى مشتهاها مشتهاها

وكم سكن بها من خلفاء، وملوك وأمراء، وكتاب ورؤساء، ووزراء وقراء، وأولياء وفقراء، وأغنياء وأذكياء، وأغبياء، وذى هنات وأتقياء، وتلاوة قرآن، وتدريس أفنان، وشعراء وآذان، ونغمات وألحان، وقضاء أوطار، وضربات أوتار و(كل نفس بما كسبت رهينة) وهذا يسعى فى خلاص ذمته، وهذا يوافقه القدر فى حبائل جنايته بخيانته .

عن رحلته : « الرحلة الحجازية »
محمد بن عبد السلام الناصرى
(١٧٣٢ - ١٨٢٣م)

محمد بن عبد السلام الناصرى الذى رحل فى اتجاه الحجاز سنة ١٧٨٢ مارا من مصر ، وعلى عادة أسلافه من العلماء والشيوخ والرحالة فقد توقف طويلا متحدثا عن وجوده هناك ومشاهداته فى حج ثقافى بديع .

ذكر دخولنا لمصر

ولما كانت صبيحة الرابع و العشرين من شوال، عبرنا إلى القاهرة فنزلنا مرسى بولاق على العودة الأخرى من النيل ذى المساجد والأسواق والمقاهى الباهرة، فما بتنا بها إلا ليلتين حيث آذن المصرى بالرحيل، فصاحبته تاركا ركبنا السجلماسى فى قضاء أوطاره، و كان ذلك بإشارة من لا تسعنى مخالفته من الأولياء بطرابلس مؤثرا مشى الليل على مشى النهار، مستسهلا مشقة السهر بالليل على حر النهار، فكان فى ذلك لطف عظيم، و خير جسيم، سيما فى الذهاب

ويقرب منه الإياب، و مررت بأزقة القاهرة حتى سبحت بالأزهر، وزرت المشهد الحسينى ولم ألق بها لضيق الوقت داعيا ولا مجيبا، غير أنها كما فى الحديث: (خزانة الله فى أرضه). وبعد الرجوع، لا حرمنا الله تعالى، نمتع الجفن من روضه ويشفى منا الغليل من التردد فى عرصاته و التمثل بين يدى علمائه ودهاته، حتى نشاهد من أخباره وعجائبه و غرائبه ما تتمتع به الأسماع، ويكتسى به الكتاب حسنا يكون به فى الغاية من الإبداع. فخرجت من باب النصر إلى البركة فى السابع والعشرين، ووافق يوم الجمعة، وصليت خلف إمام شافعى بجامع باب النصر.

تنبيه: ولما فرغ من الخطبة والصلاة على سنتها المألوفة، تقدم رجل آخر من الشافعية للمحراب، وأعادها بالناس ظهرا، فقلت للإمام الأول: ما وجه إعادة هؤلاء؟ فقال: الشافعية يرون أن الجمعة لا تصح إلا بالعتيق اتفاقا عندهم، ولما تعذرت معرفة العتيق وجب إعادتها ظهرا. فقلت: لا والله لم تتعذر معرفة العتيق، وبأيدينا من التاريخ ما يعطينا فى ذلك التحقيق، وإن كان الأمر كما قلت فهلا عدت أنت بهم ؟ فقال: صلى خلفى المالكى و غيره، و أنا قد كنت قلدت المالكية

أولا، فلو أعدتها ظهرا لبطلت على المالكية. فقلت: إن قلدت قولا فى مذهب مالك صحت لك ولهم الجمعة، فما فائدة الإعادة،؟ قال: على وجه الاستحباب و خروجا من الخلاف. فقلت: هذا تنطع فى الدين.

●●●

ثم لما صلينا الجمعة بباب النصر، توجهنا للبركة وبينها وبين القاهرة نحو من ست ساعات، كذا ضبطه أهل مصر جريا على عادتهم من الاعتناء بآلة التوقيت من نحو مكانة والأسطرلاب. وقال العبدرى: (بينهما نحو عشرة أميال). والطريق كلها من مصر إلى البركة كأنها سوق واحد من كثرة الذاهب والجاى، وكثرة الباعة لأنواع الطعام على الطرقات، وبها قصور ذوات شرفات اتخذت للنزهة، ولا تمر ميلا أو نحوه إلا وتجد جيشا سلطانيا يمين الجادة وشمالها يحرسون الخارج من مصر والداخل لها، وكذا دأبهم مع الحاج فى الإياب، وإليه سبحانه المرجع والمآب.

ومن يوم خروج المحمل، يشمر الناس عن ساق الجد فى التجهيز للحجاز، ويقدم الجمالون من الصعيد والأرياف، وتختلف رغبات الناس، فمن مائل للكراء، ومن مائل للذهاب

بإبله، فمن أراد راحة بدنه وتعب قلبه والخصومة آناء الليل وأطراف النهار اكترى، ومن أراد سلامة قلبه والمخاطرة بماله اشترى إبله. ثم يأتي عرب الدرب للكراء على حمل الفول لعلف البغال والإبل من مصر إلى المويلح، فيكترى منهم كل من يريد الطلوع بإبله على العلف إلى المويلح لعدم قدرتها على حمل زادها وزاد أربابها، ذهابا وإيابا، ومن أراد المخاطرة فلا يشترى ولا يكتري، بل يشترى فى كل بندر ما يحتاج إليه، إلا أنه ربما يقل فى بعض الأحيان فيقع الغلاء، وربما كان الشراء فى البنادر أرخص وأفضل، ولا يكترى أحد من عرب الدرب إلا بعد إعطاء شيخهم لأمير الركب حميلا بمصر، لئلا يغدروا، مع ذلك ربما غدروا، فيقع الغلاء فى البنادر. وبركة الحاج المذكور هى: بركة واسعة مد البصر، يجتمع بها ماء النيل وأنواع الأطيار، وتبصر بها الأسواق والقهاوى المزخرفة، والفساطيط المونقة، ويخرج غالب أهل مصر للوداع والتفرج والتنزه فى بساتين ومقاصير. وعادة الركب النزول بها ليتلاحق الناس، ويقيمون بها يومين أو ثلاثة، وبها آبار عذبة طيبة، أغنى الله تعالى عباده عنها بماء النيل، ويترفهون فى هذه الأيام بطبخ ألوان الطعام، والحلويات، ويفتخرون بها

بنصب السفر الملونات، ويجتمع بها من أخلاط الناس الكثير، خصوصا طوائف الناس من الفقراء من أشياخهم، يذكرون على ما جرت به عادتهم من الرقص المنهى عنه شرعا، وأما أهل اللهو والغناء والمزامير فلا تسأل، كل ذلك فرح وسرور بخروج الحاج - فيما يزعمون - وفى جانبها الغربى قرى متعددة فى إحداها مسجد سيدى إبراهيم المتبولي، حسبما للشعرانى فى الطبقات. ولم تبق البركة على ما وصفها به العبدرى من قوله: (صحراء لا أنيس بها)، وإنما الحال على ما وصفنا فيها.

وبات الناس الليلة الأخيرة فيما شاهدت فى رغد عيش، ومزيد بسط، والحجاج فى جد واجتهاد من شد الأقتاب، وتعديل الأحمال، وملء القرب، مستقبلين البرية العظمى، برية ما بين مكة ومصر، مسيرة أربعين يوما جادة، وليس بها فى القديم مستعتب إلا ببدر وينبع، أما فى هذه القرون المتأخرة فقد أحدث بها أمراء مصر بنادير كثيرة، يستريح الحاج عند وصولها ويقام بينه وبين ساكنها والأعراب سوق فيها. والورود فى جميع هذه المسافة ربع وغب، والربع هو الغالب، وليس فى البرارى التى يسلكها المسافر فى سائر أقطار

الدنيا أوحش منها ولا أقفر، وأرضها فيما بين رمل وحروشة تامة، لا يمكن أحد المشى بها إلا بالمداس، بل أينما جئت مكة لا تخلص إليها إلا بعد عناء وخوف فيما احتف بها من هذه البرية.

وبها قوم من العرب صعاليك، أنذل من الثعاليب، يتنقلون بها من موضع لآخر ليس لهم قوت ولا حرث إلا ما يمتارونه من بعيد، فهم أبدا فى جهد جهيد، وقلما يظهرون للركب لخبث أفعالهم وعدم ما يعاملون به إلا بنحو حشيش يابس، وإنما يطالعون الركب من كل مرقب، فإذا رأو متخلفا لحاجة أو نوم أوغفلة أو عى أو انقطاع وقعوا عليه فمزقوه ولو على أقل ما يتمول، فإن كان عليه زى المصريين قتلوه، أو المغاربة سلبوه وربما جرحوه.ويزعمون أنهم إخوة المغاربة، ويقولون فيهم: أولاد عائشة إخواننا، وكأنهم ما رأوا من صلابة المغاربة وقوتهم على الحرب وشبيهة بعضهم بهم لانوا لهم بعض اللين بخلاف المصريين والشاميين، ولولا أمراؤهم وما ألهمهم الله تعالى له من الاستعداد لهذه البرية باتخاذ الجيش مرتبا على قانون لما أمكن لأحد ممن يأتى وراءهم الحج، لطولها وخلائها إلا من القطاع، ولك لطف الله تعالى يصحب

عباده، وإغاثته تسرع إليهم على حسب اضطرارهم، وتوجههم إليه، فسبحانه من كريم جواد رحيم، دعا عباده لحج بيته، وزيارة قبر نبيه صلى الله عليه وسلم، وحجته (وسهل لهم سلوك البرارى الموحشة وركوب السفن الجارية المدهشة، حتى تمتعوا برؤية تلك العرصات، وعفروا ديباجتهم من تقبيلها، فانقلبوا بغفران ما اقترفوا من الزلات، لا إله غيره، ولا خير إلا خيره).

الرحلة الناصرية الكبرى
أحمد بن حسون الوزانى
(١٨١١ - ١٨٧١)

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، سيرحل الفقيه والشاعرأحمد بن حسون الوزانى إلى الحجاز بنية الحج فى رحلة مغايرة لرحلات القدامى ممن سبقوه ، على الباخرة مارّا بدول أوربية قبل أن يصل إلى الإسكندرية متنفسا الصعداء .

التوجه إلى الإسكندرية

وبالغد عند الزوال ركبنا بابورا آخر فرجاطة من بابورات الجيدة بعثه عظيم الروم من باريز، ويحمل سيدى عبد السلام بمن معه لمدينة الإسكندرية وينتظره هناك إلى أن يحج ويرجع فيحمله أيضا إلى طنجة، وكان الأمر كذلك.

وفى صنعة هذا البابور من العجائب ما لا يكيف. وفى البابور وعجائب صنعه أنشدنى الأديب جعفر بن سودة الفاسى لنفسه لأنه ركبه:

حيلتي بارت بالبابور طواها

سيرة فاسلك بي سبيل اليسار

وبمجرد ما ركبناه سافرنا متوجهين للإسكندرية، بلغ الله بخير وعافية. فقلت إذ ذاك مخاطبا البركة البار أبي عبد الله سيدي محمد بن عبد الجبار المتقدم:

أيا نخبة الأقطاب سرت مسافرا

فسر في أمان الله لا تخش من نصب

فذا المركب الأحظى تحرك ماشيا

يشق جبال الماء من غير ما تعب

ثم في ليلة الثلاثة لاثني عشر ليلة خلت من شوال عام التاريخ قرب الفجر مررنا بجزيرة تظهر فيها النار كل ليلة بمواضع شتى ثم تخفي ويبقى دخانها ثم تظهر، وهكذا قالوا ذاك شأنها من أول الزمان، وقد أخبرنا بها الرايس قبل الوصول إل جبالها.

ثم في ضحوة يوم الثلاثة المذكور أشرفنا على مدينة النبلطان جنس من جنس النصارى، تسمى بستينة فدخلنا مرساها، وأقمنا بقية يومنا، وبتنا هناك لحمل الفحم للبابور، ودخل بعض رفقائنا، وبالغد يوم الأربعاء بعيد الفجر سافرنا على أمان الله وحفظه.

دخلنا مدينة الإسكندرية ضحوة يوم الأحد لسبع عشرة ليلة خلت من شوال الأبرك عام التاريخ، فرأينا جماعة المسلمين وعساكرهم واسترحنا من الكافر عدو الدين ووقينا شرهم. وهم إن كانوا لا يمنعوننا من فرض ولا نافلة ولا بذلوا مجهودا فى إتحاف ساداتنا وإكرامهم، فعدو ديننا عدو لنا:

صحبناهم لما اضطررنا إليهم

كما اضطر صياد إلى صحبة كلب

الرحلة الوزانية الممزوجة بالمناسك المالكية
الشيخ ماء العينين
(١٨٣١-١٩١٠)

ولد بالجنوب المغربى سنة ١٨٣١ فارتبط اسمه بالتصوف والمقاومة ضد دخول الفرنسيين للمغرب وضد الوجود الإسباني؛ كما اشتهر بمؤلفاته والتى تعد بالمئات، تم حرق الكثير منها فى الهجوم الذى شنته القوات الفرنسية والإسبانية على بيته بالسمارة. وقد تعددت مجالات اهتماماته فى التصوف والفلسفة والرياضيات وعلم الفلك ...

غادر الشيخ ماء العينين مدينة طنجة بحرا مرورا بمصر نحو البقاع المقدسة يوم الأربعاء ١٩ ماى ١٨٥٨ . وقد وصل الإسكندرية فى منتصف أكتوبر ١٨٥٨ ، وفيها لبث أزيد من خمسة أشهر بعدما منع ركبهم انتشار الجدرى وهطول الأمطار. عاد إلى الساقية الحمراء يوم الاثنين ٢٧ ماى ١٨٦١ وبقى قائدا مجاهدا ومؤلفا إلى أن توفى يوم ٢٩ أكتوبر ١٩١٠ بمدينة تيزنيت .

وركبنا فى السفينة، ولبثنا فيها أيضا تسعة أيام وخرجنا إلى موضع يقال له "القصير" ولم نبت به، بل حين أتيناه اكترينا دوابا لموضع يقال له "أثن" على شاطئ بحر النيل وأتيناه على أربعة أيام، ولبثنا اثنى عشر يوما، وركبنا فى سفينة تريد مصر، ولبثنا دونها تسعة أيام، وبتنا بمصر ليلة واحدة وركبنا فى بابور البر وجئنا الإسكندرية فى ذلك اليوم، وبينهما مسيرة سبعة أيام للجمال، فلما أتيناها أصابنا بها الجدري: وتعرض لنا بعد ذلك زمن الشتاء فتعطل السفر فى البحر، وتأخرنا إلى أن لبثنا فيها خمسة أشهر وبعض السادس.

القطار والتلغراف بمصر

فائدة فى غرائب تفيد الاعتبار منها ما رأيته وقومى بالأبصار ومنها ما حدثنى به من أثق به فى الإخبار، ومنها أربع غرائب أحدثهن محمد سعيد بن محمد على باشا الخديوى سعيد رحمه الله فى قرننا هذا الذى هو القرن الثاسع عشر، فى مصر رأيتهن كلا بعينى رأسي:

الأولى منهن: بابور يسير فى البر فيما بين مصر والإسكندرية غربا، وفيما بين مصر والسويس شرقا. ومن

سرعته أنه يقطع مسيرة اليوم فى الساعة، وذلك أن مصر والإسكندرية بينهما مسير سبعة أيام، كما تقدم؛ وهو يقطع ذلك فى سبع ساعات؛ ومصر والسويس بينهما مسير يومين، وهو يقطعه فى ساعتين.

وقد ركبنا الذى بين مصر والإسكندرية: ركبناه من مصر ضحى كبيرا ونزلنا بالإسكندرية فى أول عصرنا فى ذلك النهار. ويحمل من الناس والتجارات ما لا يوصف كثرة. ويكفى فى ذلك أنه يحمل باشا مصر وأرطاته، وذلك أن باشا مصر لابد له من أربع أرطات، كل أرطاة ثمانمائة رجل، مُرْد لا يكون فيهم إلا ابن رئيس. وهذا العدد لا يفارق الباشا فى نوم ولا فى يقظة، ولا يحضرون فى غزو ولا فى غيره، لأنهم هم حراس الملك عندهم. والعدد كله الذى هو أربع وثلاثون مائة رجل، أى ثلاثة آلاف وأربعمائة رجل، سلاحها وفرشها يحملها ذلك البابور مع خَدَمَته الذين يخدمونه، أى يشتغلون فيه. وأغرب من هذا كله أن طريقه التى يسير عليها ليست إلا طريق واحدة مصنوعة له ومفروشة كلها بصفائح الحديد من الإسكندرية إلى مصر ومن مصر إلى السويس.

الغريبة الثانية: وهى أغرب من الأولى: سلك مصنوع من خلط معادن، رأسه بمصر ورأسه بالإسكندرية، وآخر رأسه بمصر أيضا ورأسه بالسويس، وكلاهما فى رأسه قلم يكتب، وعند كلا رأسيهما أيضا رجل جالس، فإذا طرأ خبر مثلا فى مصر، وأحبوه أن يصل إلى الإسكندرية، يأخذ الرجل الذى هو جالس عند رأسه بمصر رأسه الذى عنده ويكتب به، فإذا تمت الكتابة عنده انكتبت فى الإسكندرية، أى تكتب بالرأس الذى فيها عند الرجل الجالس عنده، وكذلك إذا طرأ خبر فى الإسكندرية، يكتب الخبر به من إحدى الأمصار للأخرى، ويأتى من عند الآخر الجواب فى ثلث ساعة أو أقل.

وكان سبب صنعهم لهذا السلك أنهم لما صنعوا البابور المتقدم ذكره، قالوا: سيكون لكم علة، وذلك أن كل من أحب أن يجنى جناية أو يسرق سرقة فإنه يفعلها ويركب قبل أن يعلم بخبره ويصل إلى المصر الآخر ويدخله من حيث شاء، ويبقى المجنى عليه أو المسروق له كأنه يريد صاحبه فى مصره الذى هو فيه. فقاموا وصنعوا السلك.

وكان من قدر الله أنهم بعدما صنعوه بقليل، قام رجل يوما بضرب عبد له بمصر، فقام العبد وترك سيده حتى نام

أو غفل وأخذ له كثيرا من المال وجاء إلى أهل البابور وأكراهم ليوصلوه إلى الإسكندرية ليذهب من الموضع الذى يتهمه به سيده. فكان من قدر الله أن سيده تيقظ بعد قليل أو تنبه، وسار إلى صاحب السلك وقال له: اكتب لأهل الإسكندرية أنى هرب لى الآن عبد وصْفُه كذا وكذا، أخذَ لى من المال كذا وكذا لئلا يكون ركب فى البابور إليها، وأنا سائر فى مصر أريده لئلا يكون فيها. فكتب صاحب السلك بالخبر لأهل الإسكندرية ووصلهم الخبر فى ثلث ساعة، والبابور لا يأتى إلا بعد سبع ساعات، كما تقدم. فلما جاء البابور إذا بالناس واقفون ينتظرون العبد وعندهم وصفه ووصف المال الذى عنده، فلما سألوهم قالوا لهم: ها هو معنا. فأخذوه وأخذوا المال من عنده وردوهما إلى ربّهما. وهذا من أغرب ما يكون، وسبحان الذى بيده ما كان وما يكون.

الغريبة الثالثة: طريق حفرها أهل مصر عن إذن من ذلك الرجل رحمه الله فيما بين مصر والسويس، وساووها وملسوها، وإذا تعرض لهم شيء من الهضاب أو التلول مثلا فإنهم يعبلونه حتى يساووه مع غيره إلى أن صار الأعمى فيها والناظر مستويين. وهذا فى مسيرة يومين.

الغريبة الرابعة: بحر جَذَبه من النيل حتى وصل به إلى الإسكندرية وبينهما، أى النيل والإسكندرية، مسيرة ثلاثة أيام، وصارت السفن تجرى فيه. ومن أحسن ما فعل فى حفره إياه، أنه لما قرب اجتماعه مع النيل، وقد كانت تعمل فيه ثلاثمائة ألف عامل وأكثرها مسلمون، وغير ذلك نصارى ويهود، قام وجعل يقلل أجرة المسلمين ويكثر أجرة النصارى واليهود ويقول لهما: أنتما أحسن شغلا من المسلمين، وإن المسلمين لا يشتغلون شغلا يفيد شيئا. حتى صار المسلمون يدعون عليه بأسوأ الدعاء. وصاروا يخرجون واحدا واحدا عن شغلهم له. وصار اليهود والنصارى يتكاثرون تكاثرا لا يوصف، لكثرة ما يعطيهم من الأجرة وحسن ما يسمعهم من لفظة، حتى صار لا يعمل فيه إلا النصارى واليهود.

ثم لما وصل الحفر إلى الماء، انطلق الماء عليهم انطلاقا شديدا حتى مات من الجميع أكثر من مائة ألف، ولم يخرج الباقى إلا على أقبح حالة. فقال للمسلمين: هكذا أردت. فاعتبر المسلمون غاية الاعتبار وصاروا يدعون له بأحسن دعاء.

وهذه الغرائب كلها رأيتها بعين رأسي، غفر الله لى فى يومى وغدى وأمسي.

ومنها: رحى وجدتها حين تمامها بالإسكندرية، وهى من أغرب ما صنع فى البرية. وذلك أنها رحى تطحن وحدها، وتغربل وحدها، وتخبز وحدها وتنضج الخبز وحدها. وتحريكها ليس إلا بالريح. والناس ليس عليهم فيها إلا مسألتان:

إحداهما صب الزرع أولا فيها، والثانية تقطيع الخبز إذا تعجن الدقيق ورميه فى الموضع الذى ينضج فيه منه لا غير. ومع ذلك، تطحن من الزرع في وقت واحد ما لا يوصف كثرة، وأحرى في يوم كامل.

ومنها: بابورات كثيرة بالإسكندرية أيضا، وفى مصر أكثر، تجذب الماء وحدها من النيل يسقى به الزرع، وبعضها يجذبه من البحر الكبير، أى بحر محيط، لبعض حوائجهم، وبعضهم يجذب الطين للبناء ولغيره من الحوائج لشط النيل، وبعضهم ينجز الخشب الكثير، وليس على الشخص فى الخشبة إذا جيء بها إلا تحريكها من جانب لجانب حتى يكمل نجرها.

عن رحلته : « الرحلة الحجازية »
الطيب بن كيران
(توفى سنة ١٨٩٦)

وصل الطيب بن كيران إلى مصر يوم تاسع عشر أكتوبر ١٨٨٦ ، ثم سيأتى على ذكرها أثناء رجوعه حيث سيقيم بالإسكندرية عشرة أيام . وقد طبعت هذه الرحلة أول مرة بالمطبعة الحجرية سنة ١٨٨٨ . بعد ٢٢٨ ساعة :

وفى اليوم التاسع من ركوبنا ، وهو يوم الاثنين عند العشاء قابلنا الإسكندرية، وفى صبيحة يوم العاشر عند السبعة يوم الثلاثاء أرسى البابور بمرسى بور سعيد ؛ جديدة البنيان عامرة الأسواق وكبيرة وفيها ماء النيل أجراه لها من حفر الترعة، وتزودنا منه. وفيها كثرة الفواكه والخضر، وتزودنا من ذلك.وبقى يومه وليله راسيا إلى صبيحة يوم الأربعاء، فانطلق عند الشروق فى السبعة.

جملة ما سرنا من السوائع من طنجة إلى بور سعيد مئتان وثمان وعشرون ساعة، وفى كل ساعة يقطع ثمانية

أميال ونصف. ثم سرنا يومنا فى الموضع المسمى بالترعة، والبر عن يميننا وشمالنا مع العمارة، والبحر ضيق كأنه واد من الأودية لا تجرى فيه إلا مركب واحدة.

ثم أرسى البابور عند الغروب يوم الأربعاء بموضع يسمى بالإسماعيلية، باسم من بناها، وجملة ما سرنا فى هذا اليوم عشر ساعات، وبات البابور راسيا، ثم انطلق عند الشروق يوم الخميس العاشر من ذى القعدة مع مشيه فى هذين اليومين برفق؛ فتارة يركض، وتارة يتحرك على حسب غَمَق الأرض.

ومنذ خرجنا من بور سعيد، وعلى حاشية المجرى أوتاد من العود غليظة مضروبة فى الأرض، يظهر رأسها، قريب ما بينها، يقابل كل وتد عود من الجهة الأخرى، مكتوب فيه مقدار غمق كل ما بين وتدين منها بخط غليظ. والرايس من موضعه ينظر إلى ذلك، ويعمل بمقتضاه ؛ فما كان (غمقا) أجرى فيه، وما لا فيحسبه. وتارة تكون البوطات بدلا عن الأوتاد. وسرنا إلى الغروب. وبات البابور راسيا.

ثم أطلق فى الشروق يوم الجمعة، (حادى عشر ذو قعدة الحرام)، فوصلنا لمرسى سويس عن ساعتين، وأرسى إلى الزوال. ثم أطلق، فابتدأنا بحمد الله بحر سويس يوم الجمعة

عند الزوال، وقت استجابة الدعاء ثم طلبنا من الرايس أن يرسى البابور إذا سامَتَ رابغا، ميقاتنا، حتى نتهيأ للإحرام، فأجابنا إلى ذلك.

ثم سرنا حتى حاذينا رابغا، بكسر الباء، كما فى القاموس وغيره، يوم الاثنين رابع عشر ذى قعدة الحرام فى الثمانية من النهار، فأرساه مقدار ما تهيأنا.

مصر فى الإياب

ووصلنا لمرسى سويس فى الزوج بعد نصف الليل من ليلة الثلاثاء، صبيحة سبع وعشرين من صفر. ودخلنا لمرسى سويس بعد طلوع النهار من يوم الثلاثاء، وهو أول يوم من مارس.

وركبنا بابور البر فى عشيته، وشرع فى السير عند العشاء. ووصل إلى الإسكندرية قرب العشى فى الأربعة ونصف من يوم الأربعاء ثامن عشر صفر، ونزلنا فى القباري، وصلينا الجمعة الأولى فى الإمام البوصيرى.

وزرنا مقام الشيخ أبى العباس المرسى بجواره، وأبى محمد صالح، والإمام الخزرجي، والإمام الفاكهاني، والشيخ الصالح سيدى عبد الزراق أجل تلامذة سيدى أبى مدين،

والشيخ سيدى أحمد المناوى، والإمام القابسى، والإمام ابن الحاجب صاحب "المختصرين"، والولى الصالح سيدى ياقوت الحبشي، الملقب العرشى، والولى الصالح سيدى مكين الدين الأسمر، والولى الصالح أبى بكر الطرطوشى صاحب الكرامات.

ثم صلينا الجمعة الثانية كذلك بالإمام البوصيري، وأقمنا بالإسكندرية عشرة أيام. وركبنا البابور يوم الجمعة بعد الصلاة، وبقينا بالمرسى يوم السبت وليلة الأحد.

الرحلة الطنجوية الممزوجة بالمناسك المالكية
الحسن الغسال الطنجى
(١٨٦٦ - ١٩٣٩)

الحسن بن محمد الغسال الطنجى ، كاتب ومؤرخ ورحالة ولد سنة ١٨٦٦ ، وتوفى بمراكش سنة ,١٩٣٩خلف مؤلفات عديدة منها رحلته الحجازية " الرحلة الطنجوية الممزوجة بالمناسك المالكية " .

خرج من طنجة على متن باخرة انجليزية يوم ٢٦ أبريل ١٨٩٨، وسيصل إلى الإسكندرية فى الخامس من ماى بعد الشروق .أما عودته فكانت بعد خمسة أشهر فى أكتوبر ١٨٩٨ .

الوصول للإسكندرية

ولما قربنا للإسكندرية عظم علينا البحر واشتد هيجانه فتداركَنا المولى جلَّ جلاله بالألطاف الخافية والحمد لله .

وبصبيحة يوم السبت بعد الشروق وصلنا للإسكندرية التى هى من أمهات المراسى المذكورة ، وهى واقعة على البحر

الأبيض وترى فيـها من البابورات وغيرها ما يشبه الغابات المحتبكة.

ومن المزارات التى زرناها بها مقام نبى الله دانيال عليه السلام وهو فى سرداب لدرج أرضى كذلك والله أعلم. ثم زرنا مقام الإمام البوصيري، ومقام الشيخ أبى العباس المرسى بجواره، وغيرهم من مقام السادات الصالحين رضوان الله عليهم أجمعين، ونفعنا ببركاتهم آمين.

وفى هذه البلدة عدة جوامع عظام وأشهرها جامع الإمام البوصيرى، وفيها حصون حصينة وقشلات عسكرية وقصر الخديو المضى على نحو المرسى ومنظره من جهة البحر جميل فائق، وبعد المحل المذكور المعروف بالمحمودية يخرج الناس إليه فى العشية من المسلمين وغيرهم، وتكون هناك الموسيقى تصدح بالنغمات المشرقية، وحولها الأشجار العظيمة والأنوار الغريبة وفى وسطها فصحات رخامية، ظريفة الشكل محمولة على صور سبع من الرخام، وماء النيل يتدفق منها بقدرة كبيرة، وأغلب طرق البلد واسع مبلط بالحجارة نظير النوع الأورباوى وبها خانات كبيرة، وأسواق عامرة، ومخازن لبيع البضايع والتحف الغريبة، وبها عدة حمامات جميلة الشكل

والصنعة على أكمل المراد من النظافة، ومن عجايبها عمود السوارى التى (حارت) الأفكار فى صنعته، وهو عمود واحد من الرخام مرتفع فى الهواء نحو الثلاثين مترا وفوقه تاج من الحجر المربع المنقوش. وبالجملة فهو من مآثر هذه المدينة العجيبة، وناهيك بمفاخره بل بفخامته ملك تيلها الإسكندر، وقد كانت إقامتنا بهذه البلدة عدة أيام بعدها، فخرجت بعفشى كله لسويس تخفيفا من الأثقال.

الاتجاه للقاهرة

وفى الساعة الرابعة عشية يوم السبت، ارتحلنا من الإسكندرية صحبة بابور البر سويس، وسار بنا سيرا وسطا، ولم يقف إلا ببعض القرى، وكان منظر الطريق فى غاية الحسن والبهجة من أصناف النبات والزراعات، ولم يطل بنا المنظر الجميل حتى أرخى الظلام سرواله، فوصلنا لمصر القاهرة ليلا عند الساعة الثامنة فتلقانى فى موقف البابور الوجيه الفاضل قاسم بيك نجل وكيل المغاربة بمصر المحروسة، السيد الحاج محمد العلوا الفاسي، ورحب بنا أتم الترحيب وأركبَنا فى عربيته المخصوصة به وتوجهنا معه إلى دار سكنى أبيه، ولها أكرم نزلنا حتى سافرنا ومن ثمة، وما

قصر معنا فى الترحيب والإكرام والبرور التام فجزاه الله على إحسانه خيرا... من فاعلها القطر المصري، ويمر وادى النيل بمحاذاتها وعليه آلة بخارية لرفع الماء، وتصفيته، وتفرقته على جميع الديار والسقايات وغير ذلك، وعلى حدود نهاية البلدة جبل شاهق عليه قلعة عظيمة على شكل هندسي، وبها مستقر الأمراء، وهى ذات حصون متينة محفوظة بالمدافع الجديدة، وتلك منها سائر المدينة، وبهاته القلعة جامع كبير، وقبة شاهقة، وجُل ذلك من مُنشآت باشا محمد على المغربى رحمه الله رحمة واسعة .

وبها مشاهد عظام من أهل بيت النوبة الكرام ومقامات الصالحين والأعلام كالإمام الشافعي، وذلك خارج القرافة، إلى (غير) ذلك من المشاهد والمزارات التى يعجز القلم عن إحصائها لكثرتها. ومن أعظم المشاهد هناك جامع سيدنا الحسين، وهو مشهد عظيم، مقام مهاب فخيم، وبها عدة جوامع ضخمة محكمة البناء كجامع المؤيد والعتيق يسمى عندهم جامع ابن العاص، ومن أعظم الجوامع المشهورة فى الدنيا الأزهر التى يدرس فيها فنون العلوم من الأصول والفروع على طرق المذاهب الأربعة ومحاط الجامع بالأروقة

أى بيوت كالمدرسة يقيم بها جماعات من الطلبة المجاورين لأخذ العلم. وبهاته المدينة أسواق كثيرة، وحوانيت عامتها فى سائر الجهات لبيع السلع والبضايع المجلوبة لها من سائر الأقطار المعمورة، وأغلب طرقها فى عرض واسع على نحو المنوال الأورباوي، وبعض الطرق لا تمر بها العربيات لضيقها لكونها لازالت على العمل القديم.

ومن محاسن القاهرة حديقة الأزبكية الجميلة المنظر، المحوطة بأصناف الأشجار، وأنواع الأنوار، وخاصات رخامية تفور بمياه النيل. ومن سمات ما يذكر فى القاهرة الأهرام التى بقيت بها ،غير أنه لا يتيسر لنا الوصول إليها حتى أزعجنى السفر، لأنى كنت عازما على تقديم الزيارة فحقق الله رجاءنا والحمد له، وبالجملة فإن صفة مدينة مصر لا يقدر وصاف على عد أوصافها ولو كان مقامه بها.

الطريق إلى السويس

وفى عشية يوم الأربعاء ارتحلنا منها على طريق سكة الحديد بعدما أقمت بها عدة أيام، ولما مررنا على الإسماعيلية بتنا بقية الليل ؛وعند الفجر قمنا منها فى صبيحة يوم الخميس قبل الشروق وصلنا السويس فكان جملة السير من

القاهــرة إليها ثمـانى ساعات ،وعند البابور تلقانا الفاضل عبدالفتاح نائب وكيل المغاربة .من ثمة، وكان نزولنا عنده بداره، وأهم ما هناك مرساها الصناعية، وبقربها الخليج الجامع بين البحرين الأبيض والأحمر وحول المرسى حجر الكرنتيلة، وفى وسط هذه البلدة التجار ورياضات حول ديار بعض الأجانب ويتخللها ماء النيل، وقد منَّ الله علينا بزيارة ضريح الولى الصالح الصديقي سيدى غريب الدفين داخل البلد تقبل الله ونفعنا ببركاته آمين.

ركوب الباخرة من السويس

وبعد قضاء ما دعت الحاجة إليه من شونة السفر، ركبنا الباخرة المصرية المسماة بالمحلة الرحمانية. وعند الزوال من يومنا هذا أقلعنا منها، وكان بها مسلحا ولا يركب أحد من الحوض إلا بعد أخذ إذن مرسوم على ورقة جوازه، ويؤتى على ذلك.

وبعدما صعدتُ إليها أخذتُ بيتا فى القمرة، وكان فى الباخرة ازدحام فادح من الرجال والنساء والصبيان بحيث لا يجد الإنسان فيها محلا فسيحا حتى تدافعنا على الركوب هناك، ولكنى تسليت لما رأيتُ من انشراح جميع الركاب وعدم

اكتراسهم بما هم فيه من المشقة والحرج، كما تسليت أيضا وانشرح صدرى أيضا بمرافقة بعض طلبة العلم من الديار الشامية، فكنتُ أُرَوِّحُ النفس معهم بالمفاكهة مع المحافظة التامة على إقامة الصلوات الخمس فى أوقاتها جماعة بآذان وإقامة، وغالب الأوقات كلها معمورة بالأذكار والتلاوة الحسنة وإنشاد الذكر فى خير البرية - صلى الله عليه وسلم - غير أنى رأيتُ كثيرا من الحجاج لم يُصَل ولا يستطيع الصلاة، سيما عند اضطراب البحر وهيجانه.

الوصول إلى ينبع

وعند الغروب من يوم السبت ، وصلنا إلى مرسى ينبوع، وهو أقرب المراسى إلى المدينة المنورة بحيث تصلها القوافل فى ثلاثة أيام، غير أن هواءها ليس بالجيد، وكذلك فإن ماءها يوصف بأنه أجاج، وسبب ذلك وقوع انحراف لنا فى المزاج حتى بلغ المرض منه الجهد.

عن رحلته: «الرحلة الطنجوية الممزوجة بالمناسك المالكية»
أبو عبد الله محمد الكتانى
(١٨٥٨ - ١٩٢٧م)

ولد الشيخ أبو عبد الله محمد بن جعفر الكتانى الحسنى بمدينة فاس سنة ١٨٥٨م، تربى وترعرع وسط جو علمى ودينى مما أهله ليكون عالما خلف أزيد من ثمانين مؤلفا فى مختلف مجالات المعرفة، رحل إلى الحجاز من مدينة طنجة على مركب إنجليزى يوم ٢٨ نوفمبر ١٩٠٢ ووصل إلى الإسكندرية يوم الثامن من ديسمبر ١٩٠٢، ومنها توجه إلى الحجاز ثم البلاد الشامية، بيروت ودمشق ومنها إلى بيت المقدس ومدينة الخليل .

عاد الشيخ الكتانى إلى المغرب يوم الثلاثاء ١٤ يونيو، ١٩٠٤ أما وفاته فكانت سنة ١٩٢٧ .

دخول مدينة الإسكندرية

وكان وصولنا إلى الإسكندرية بكرة يوم الثلاثاء الثامن عشر من الشهر، وهو عندهم تاسع عشرة ، لأنهم صاموا

قبلنا بيوم ، وهو يوم الجمعة برؤية الهلال على ما ذكروا وقد ذكروا أيضا أن المسافة ما بين طنجة والإسكندرية بحرا بمشى السفن المشى المعتدل المتوسط منها مشيا ، ستة أيام بلياليها الثلاث إلى مالطة وكذلك (المسافة إلى) الإسكندرية بدون إقامة فى محل ، فإن فعلوا الإقامة ، زادت المسافة بحسبها ، ووجدناهم يصلون أيضا على مشرق الشمس كما كنا نصلى فى البحر ، وكذلك أهل مصر .

مع الشيخ محمد سر الختم الميرغنى

ونزلنا فيها بدار الشريف العالم البركة سيدى محمد سر الختم بن محمد عثمان الميرغنى الحسينى، وأصله فيما قال لنا أميرغنى، وهو فى وقته شيخ الطريقة الميرغنية، ويُقال لها أيضا: الختمة بالإسكندرية وهى طريقة جده المذكور؛ وكان أى الجد يوصف بالختمية، فلذلك يُقال له: الختم ، ولهم أتباع بناحية الخرطوم وغيره ، وأخ هناك هو شيخ هذه الطريقة بها.

وقد أكرمنا غاية، ورحب بنا نهاية، وقال: «المحل محلكم ومحل أصحابكم إلى يوم القيامة» ، وما قصر إكراما ولا لسانا ـ جزاه الله خيرا – .

وقد طلبتُ منه الإذن فى هذه الطريقة ، فساعد عليها، وكذلك الإجازة فى العلوم ، فساعدَ عليها أيضا ، وكتبَ فى ذلك كتابة نذكر نصها إن شاء الله تعالى - .[...]

بعض مزارات الإسكندرية

وممن زُرناه بالإسكندرية سيدى أبو العباس المرسى، ومعه بإزائه ضريحا ولديه، محمد وأحمد، وزرنا أيضا بمسجده ضريحين: أحدهما قيل لنا لسيدى عمر الفاكهانى، ثم أضرحة أخَر، أربعة نُسبت لسيدى عثمان بن الحاجب، وابن اللبان، وابن لبابة، وابن أبى شامة، ثم زرنا سيدى البوصيرى، وسيدى ياقوت القرشى ، وكل منها بضريح مخصوص قريبا من أبى العباس، وزُرنا أيضا سيدى أبا عبد الله الغورى ومعه بإزائه ضريح آخر نُسِبَ لسيدى محمد البنا، وزرنا أيضا ابن المنيِّر أبا العباس، وسيدى سند بن عنان، وسيدى على العقباوى ، والطرطوشى، وبإزائه سيدى محمد الأسعد .

وزرنا أيضا سيدنا دنيال ، وبإزائه ضريح نسب للقمان الحكيم ، وقريب منه سيدى عبد الرزاق الوفائى ، ثم سيدى الصوري...وأولياء الإسكندرية كثيرون .

زيارة طنطا وقبرسيدى البدوى

ثم فى صبيحة يوم الجمعة ركبنا فى بابور إلى طنطا لزيارة سيدى أحمد البدوى فعملنا فى الطريق ساعتين ، من السابعة إلى التاسعة ، فزرنا أولا تلميذه سيدى عبد العال ، ومعه أخواه فيما قيل : سيدى عبد الرحمن وسيدى نور، وبينهما خزانة ذَكَرَ لنا بعض العلماء هناك، وهو شيخ الإسلام الآتى أنّ فيها شعرتين من شعره عليه السلام .

ثم زرناه ثانيا وصلينا بضريحه الجمعة ، وبعد الجمعة تلاقينا مع جماعة من العلماء هناك ، وقد ذكر لنا أن به نحوا من مائة مدرس أو أزيد، وطلبة كثيرون ، ومعهم شيخ الإسلام عندهم ، ويُقال له : شيخ الجامع الأحمدى وهو الشيخ إبراهيم الظواهرى ، فرحب بنا وبالغ ، وتذاكر فى العلم ساعة ، ثم أكرمنا بواسطته المتولى للضريح المذكور بإخراج عمامة صاحبه، وسبحته ، وهى العصبة ، ومشطان له ، صغير وكبير، وزرواطة صغيرة ،وعصابة كان يجعلها بين عينيه ، فتبركنا بالجميع .

وخرج معنا لزيارة السيد البدوى أيضا، وسيدى عبدالعال، وسيدى مجاهد هناك أيضا فزرناهم، وقال لنا عند

الخروج من السيد البدوى: «اقرأوا آية الكرسى عند خروجكم، فإنى تلقيتُ من شيخى الباجورى أن من قرأ آية الكرسى عند خروجه من موضع بنِيّة الرجوع إليه لا بد أن يرجع» . فقرأناها وخرجنا وتوادعنا معه فدعا وبالغ جزاه الله خيرا، وانصرفنا لزيارة سيدى عز الرجال هناك فزرناه .

وبعد صلاة العصر من يومنا، ركبنا البابور المصرى ، فعمل بنا فى الطريق إليها ساعتين ونصفا، وذكر لنا أن بعض البوابير وهو البابور الذى ركبناه أولا من الإسكندرية يعملُ من سيدى البدوى إليها ساعة ليس إلا ، فتصير المسافة ما بين الإسكندرية ومصر فى هذا البابور ثلاث سوائع ، وهى برا على ما قيل مسيرة ستة أيام !.

دخول القاهرة وذكر بعض مزاراتها

فدخلنا لمصر عشاء ليلة السبت ٣ وعشرى الشهر عندهم ، فنزلنا بدار الحاج الطيب التازى ، وهو تاجر فاسى هناك من أهل المحبة ، تلقانا إلى الإسكندرية ، وكان نزولنا فيها عند من ذكرنا بواسطته .

فزرنا بها المشهد الحسينى أول دخولنا، وصلينا به العشاء، ثم زرنا بعده كثيرا من مشاهدها التى لا تكاد

تنحصر كثرة، كمشهد الشافعى، وفى جواره شيخ الإسلام زكريا ، والسادات البكريين: كسيدى محمد البكرى، وسيدى أحمد البكرى، وسيدى عبد الباقى البكرى ، وسيدى تاج الدين البكرى ... وغيرهم .

عن رحلة: " الرحلة السامية إلى الإسكندرية ومصر والحجاز والبلاد الشامية "

أحمد الصبيحى

(١٨٨٢-١٩٤٤)

زار الأديب والقاضى أحمد الصبيحى السلاوى مصر فى المرة الأولى أثناء سفره إلى الحج ، سنة ١٩١٦، كما ورد ذلك فى «الرحلة المغربية المكية"حيث الأثر الفرنسى حاضر بالمحاباة ؛ ثم بعد ذلك فى رحلة ثانية أشار إليها وكانت سنة ١٩٢٩ زار فيها مصر وفلسطين ولبنان. أما رحلته الثالثة «الرحيلة الثانية إلى مصر» فكانت سنة ١٩٣٤.

رحلة ١٩١٦

وعلى الساعة العاشرة صباح يوم الاثنين ٢٠ ذى القعدة الموافق ١٨ سبتمبر، أرست الباخرة بنا فى مرسى الصعيد الشهير فكانت مدة سيرها من تونس إلى المرسى المذكور ١١٢ ساعة، بسبب سيرها على الطريق المشار إليها ونزلنا إذ

ذاك بالمرسى المذكور الذى جاءت أهميته إنما جاءت من أهمية موقعه على فم الترعة حيث تتزود منه الفحم البواخر الذاهبة إلى جهة الهند والآتية منها. نعم به عمارة لا بأس بها ولا شك أنه فى غير وقت الحرب يكون أتم وبقينا به إلى عشية ذلك اليوم فرجعنا للباخرة وعلى الساعة السادسة أقلعت الباخرة نحو الترعة.

وعلى الساعة الواحدة بعد زوال الغد الذى هو يوم الثلاثاء ٢١ من ذى القعدة وصلنا لمرسى السويس، بعد انتظار الإذن فى المرور بمضيف الترعة أربع ساعات فكانت مدة السير فى الترعة من مرسى الصعيد إلى مرسى السويس ١٢ ساعة. وقد شاهدنا منظر الترعة ولاسيما المضيق المشار إليه من أعجب المناظر سيما مع ما به من التحصينات الحربية والخنادق العصرية، وقد بتنا بالباخرة فى الليلة الموالية ليلة الأربعاء ٢٢ من ذى القعدة.

وفى هذه الليلة أقام قومندان الباخرة السيد كيو حفلة رائقة جمعت أعوانه وأعيان الحجاج، فتبودلت المؤمنات من غناء عربى وفرنساوى والحكايات المضحكات وأنشدت أشعار كان منها ما أنشأته فى الوقت نفسه بعد اقتراح بعض المحبين وهو.

وممـــا زاده فخـــرا رئيـس خبير فى شؤون البحر ماهر
قمنـدان خفيف الروح حقـا وكيمو اســـم له بين الأكـابر
وأعـوان له زادوه فخـــــرا ولا سيما كميسار يســـاهر
جزى المولى فرنسا كل خير فذا من خيرها والخير عاطر
فقوموا ثم قولوا يا حضورا تعيش الدولة العظمى المظاهر

فقام الكل داعين بذلك ومصفقين التصفيق الحاد كما كانوا يصفقون عند ختم كل واحد، فقام الكل استحسانا وفى أثناء ذلك كـانت الناس تتناول المبـردات والحلويات، وبالجـملة فـقـد كـان الوقت من أطيب الأوقات ملاحظة خـارجـة عن الرحلة قد حظيت الأبيات المذكورة أعلاه بالتشرف بحضـرة وزير خارجية فـرنسا، حيث سر بها جناب قمندان البـاخـرة فكتبها بالعربيـة وترجمـها بالفرنسـاوية الترجمـان الشـرعى بسكيكدة السـيـد كسوس، الذى كـان من رفقائنا بالبـاخـرة ورفعهـا إلى حضـرة الوزير المذكور كما أبقى عنده نظير ذلك بالباخرة.

وعصر الغد الذى هو يوم الأربعاء ٢٢ من ذى القعدة نزلنا إلى البـر، فـالبـعض وكنت منـهم نزل ببـور تـوفـيق ومنه على العـربة والقطار إلى مـرسـى السـويس، والبـعض نزل رأسـا بمرسـى السـويس وقـد رأيت المنظر بين بور تـوفـيق ومـرسـى

السويس طيبا، حيث المرور فى رصيف مستطيل والبحر على الجانبين ثم منه إلى المبانى الرائقة المتخللة بالأشجار الفايقة، وذلك على الجملة حيث كان البلد لا زال لم يأخذ ما يستحقه مركزه من الحضارة وجمال المناظر. ثم تعشينا ببعض المطابخ وبتنا ببعض دور الأضياف فيها.

ومن الغد الذى هو يوم الخميس ٢٣ من ذى القعدة، زرت سيدى أبا الليف وسيدى الغريب وعدة مساجد كلها فى غاية النظام وحسن القيام بها، كما زرت مع بعض أعيان الحجاج فى رفقة القنصل الفرنسوى، بالسويس السيد التمى المستشفى الفرنسوى فرأيناه من أظرف المستشفيات وأفسحها يحتوى على عدة أقسام للمرضى الذين وجدنا فيهم العربى والصينى وغيرهما فى غاية الراحة والاعتناء ،وإزاءه مدرسة اليتامى وذلك مما يدل على سمو العاطفة الفرنساوية نحو الإنسانية بكل مكان لا خصوص بلدها ومستعمراتها، ثم زرنا بمعية من ذكرنا مكان تصفية الماء الداخل للبلد وهو للشركة الكبرى لعموم الترعة، فرأينا أحواضا عديدة لتصفية ماء النيل وقنوات بديعة بعضها يدخل وبعضها يخرج، وهنالك محل لدواء أحمر يدخل بين أجزاء الماء لتصفيته من الطمى

وغيره ثم ميئجلان شاهقان فى عنان السماء منهما يوزع الماء على البلد ورأينا به اثنى عشر ميزانا للماء مفيدة إن فى الامكان إيجاد ستماية ليتر مصفى فى الدقيقة الواحدة، وفى هذا اليوم بدأت وفود حجاج مصر بالورود إلى السويس واجتمعنا ببعضهم كما رأينا إدارة السويس تهيء محل نزول المحمل المصرى الذى يصل إليها يوم السبت ومجموع حجاج مصر يبلغ ١٢٠٠ حاج، وقرأت بجريدة المقطم بتاريخ ٢٠ من ذى القعدة عدد ٨٣٦٣ ما يلى: شاعت إرادة مولانا السلطان المعظم حفظه الله أن يحج هذا العام إلى بيت الله الحرام تسعة عشر عالما، وطالبا على نفقة عظمته وقد صدر نطقه الكريم إلى حضرة صاحب السعادة ناظر الخاصة السلطانية بأن يرسل إلى معالى وزير الأوقاف ستماية وخمسين جنيها مصريا، لتوزيعها بواسطته على حضرات المسافرين فيعطى أربعين جنيها لكل من الثمانية المسافرين بالدرجة الأولى وثلاثين جنيها لكل من الأحد عشر راكبا بالدرجة الثانية، وأن تكون الخيم اللازمة لهم فى سفرهم على حساب عظمته أيضا.

رحلة ١٩٣٤

أما بعد، فقد سلفت لى رحلة إلى مصر مع فلسطين ولبنان عام ١٣٤٩-١٩٢٩ .

قيدتُ فيها كليمة فى مشاهداتى الخلفية التى كانت أثرية ووصفا فى الغالب، وهذه الرحلة الثانية إلى مصر قصدت فيها أولا الاطلاع على عدة كتب فوق العشرة موجودة فى الدارج بمصر والشام بدار الكتب المصرية مع الاجتماع ببعض علماء جلة لهم اطلاع واسع فى الموضوع، خصوصا شيخ العروبة الأستاذ احمد زكى بشا، وذلك بسبب ما سلف لى فى محاضرة ألقيتها فى إرجاع بعض الدارج بالمغرب الأقصى إلى حظيرة أصله العربي.

●●●

عند البحث الخفيف بديوانة بورت سعيد فى خروج السفر المحتوى على أدوات الكتابة من عمل الجلد المغربى بقصد إهدائها الأستاذ احمد زكى باشا السالف الذكر، أخبرنى مأمور الديوانة أنه قد توفى منذ أيام فقط فأسفت لفقده ورجوت البركة فى خلفه، وهكذا كان كما سيأتي، فرحمة الله عليه ورضوانه آمين.



سلف لى فى رحلة مصر الأولى وصف خفيف لبعض عظمة مصر وآثارها الفرعونية والعربية وغيرها، أما الوصف المشبع فقد تكفلت به تواريخها سيما الحديث منها كمصر الحديث لجرجى زيدان فعليك به. وإنما على عادتي، فى وصف بعض مشاهداتي، وشرح بعض تأثراتي، أقول :

لم أقم ببورت سعيد إلا بقدر ما أخذت سيارة نقلتنى إلى مصر ريحا لنصف نهار كان يضيع فى القطار، فكان المرور على طول قناة السويس فى غاية الجمال ثم المرور بعده كذلك فى مزارع خضراء من القطن والذرة كأنك فى زمان الربيع بالمغرب، والنيل لا يكاد يفارق البصر إلا بقدر ما يقع عليه النخيل أو الجمال الموقر البطيخ وأنواع الفواكه وغيرها، وبعض الأراضى مملوء بماء السقى كأنها بحيرات أو ضايات، وبعضها تدور الدواليب لسقيها إلى أن كان الوصول لمصر القاهرة ظهر اليوم نفسه وكان النزول بنزل كونتينانتال ثم الغداء والاستراحة، ثم القصد عشية إلى دار شيخ العروبة حيث أعربت للسيدة حرمه عن تعزيتى وتعزية المغرب فيه، ثم ذهبت فى صحبتهم إلى قبره بقرب داره وهو بصحن مسجده البديع الذى كان من حسناته الخالدة؛

كالمكتبة الزكية بقبة السلطان الغورى قرب الأزهر زيادة على
تأليفه وتحريراته النفسية التى لا ينقطع الانتفاع بها،
فترحمت عليه أيضا عند قبره ثم شربت القهوة بالدار وأعلمت
آل المرحوم الهدية وبعض كتب مرسلة إليه من نقيب الأشراف
العلويين بمكناس العلامة المؤرخ ابن زيدان فسروا من
الجميع، وذكروا أن أدوات الكتابة ستوضع بمكتبه لتناول
العموم لها كالكتب أيضا وبذلك كان المقصور حاصلا على أتم
ما ينبغي. ثم إن الكاتب العام لدار العروبة الأستاذ احمد
ربيع علم بالأمر بعد ذلك، فأتى إلى المنزل مرحبا ومبديا
استعداده للأخذ باليد فى كل ما عسى أن أتوقف عليه بمصر
عموما ومكانيها خصوصا، وقد كان ذلك كذلك فلم يكن
يفارقنى هذا الأستاذ النشيط مدة أيام مقامى بمصر وهو
يبدى كل اعتناء ومساعدة إلى أن أركبنى قطار الأوبة من
مصر إلى بورت سعيد، فبارك الله فى نشاطه وتنشيطه فما
هو إلا ربيع. ثم بعد يوم الجمعة يوم الراحة وصلاة الجمعة
ابتدأت فى زيارة دار الكتب المصرية كل يوم فقابلت أولا
سعادة مديرها الأستاذ لبيب أسعد برادة، الذى هش وبش
وتجاذبت معه أطراف أحاديث مختلفة حتى ذكر أولاد برادة

بفاس، الذين يمكن أن يكون بعض أجداده القدماء منهم ثم كلف سعادته الأستاذ محمد عبد الرسول بمساعدتى فى كل كتاب أطلبه، وهكذا فعل هذا الأستاذ اللطيف، بل زاد بإحضار كل ماله أدنى صلة بقصدى ولو لم أعلم به، وذلك فى نفس مكتبه بحيث كانت الكتب يؤتى بها إلى الواحد بعد الآخر إلى أن طلعت سبعة عشر كتابا، كما زرت المكتبة الزكية السالفة الذكر فطالعت بها ثلاثة كتب، والجميع إنما حصلت منه كما كان ظنى الاطلاع على أساليب الكتابين قبلى وما كتبوا فيه فالبعض منها مثل كتب جل المستعربين شرح بلا تبيين، والآخر مقابلة الدارج بالعربى أو ما يمكن أن يحل محله ونحو ذلك مما هو فى نفسه مفيد ونفيس، ولكنه لا يفيدنى فى دارج المغرب الذى هو غير دارج مصر وغير دارج الشام بحال، ثم ذهبت إلى المجمع العلمى باستدعاء الأستاذ مصطفى السقاء المحرر بالمجمع، فلقيت به الأستاذ الكبير حسين والى من كبار علماء عضو المجمع وعضو البرلمان أيضا، والأستاذ محمد حسنى الغمراوى بك مراقب المجمع ووقعت المذاكرة مع هؤلاء السادة فى قصدى الذى رأوه يتلاقى مع بعض مقاصد المجمع، فطلبوا نسخة من

محاضرتى السالفة فى الموضوع، كما طلبوا موافاتهم بسائر أبحاثى فيه، فوعدتهم بإرسال نسخة من المحاضرة، ثم بإرسال نسخة من المجموع عند إتمامه فقبلوا ذلك شاكرين وطافوا جميعا معى على أقسام المجمع الذى لازال فى طور الطفولة، ولكن الآمال كبيرة فى أنه سيبلغ الغاية المثلى المقصودة منه والنافعة لكل الناطقين بالضاد، أتم الله المراد.

ثم قابلت وقصدت أو قصدنى للنزل نفسه كثير من العلماء والأدباء بمصر العزيزة.

الرحلة المغربية المكية ١٩١٦ مخطوط بجريدة السعادة
الرحيلة الثانية إلى مصر ١٩٣٤
محمد التوزانى
(١٨٨٣م- ١٩٤٣م)

كتب الشيخ محمد التوزانى رحلته أثناء سفره إلى الديار المقدسة سنة ١٩٢٩، ومر وهو على السفينة ، بمصر يوم ٥ مايو ولم تسمح له الحكومة الإنجليزية بالنزول ، على عكس مرحلة الإياب .

مصر ذهابا

صباح الأحد ٢٤ من ذى القعدة ١٣٤٧ (٥مايو ١٩٢٩)

ولم يظهر لنا بر ولا يابسة طوال هذه الأيام، منذ إقلاعنا من تونس مساء يوم الاثنين ١٨ من ذى القعدة إلى صباح يوم الأحد ٢٤ من ذى القعدة، حيث صلينا الصبح قبل طلوع الشمس. وبعدها بقليل، فى السادسة والنصف، رست السفينة فى ميناء " برج سعيد الخاضع للحكومة الانجليزية.

ففرحنا غاية الفرح وسررنا غاية السرور برؤيتنا البر ورؤية المسلمين رغم أنهم لم يسمحوا لنا بالنزول. وفى هذا المكان ذقنا من خضرة مصر خيارها الذى طبخناه مع اللحم.ولم نغادر السفينة طوال يوم الأحد لانشغالهم بالتزود بالماء والفحم وغيرهما.

ثم دخل علينا مسؤولون انجليزيون لإحصاء الحجاج، فوجدوا أن السفينة تنقل ألفا وخمسمائة حاج. ووجدنا هناك سفينتين ممتلئتين بإخواننا الحجاج القادمين من وهران. وتعرفنا عليهم دون أن نتمكن من ملاقاتهم، وإنما أبصرناهم من مكاننا كما أبصرونا من مكانهم.ثم رحلوا قبلنا مع غروب الشمس.

●●●

واستغرقت السفينة فى رحلتها من تونس إلى هنا ست ليال وخمسة أيام. وكنا دائما فى لطف الله ورعايته، مرة تميل بنا يمينا ومرة تميل يسارا، ولكننا فى غاية الاطمئنان، إلا ليلة واحدة ضج فيها الحجاج ضجيجا ودعوا إلى قراءة "اللطيف".

فاجتمعنا تسعة أشخاص منهم : السيد محمد الوكيلى والسيد بلحاج الوردانى والمقدم السيد الوليشكي، والسيد

عبدالسلام الوكيلي مقدم السيد عبد الرحمن... وكاتب النقوش فقرأنا " اللطيف " الأوسط الذى هو أربعة آلاف وأربعمائة وأربعة وأربعون. وفي الحين انقلبت السفينة إلى الجهة الأخري.

مساء الأحد ٥ مايو ١٩٢٩ *

وفي الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم، انطلقت السفينة بنا وأوغلت فى الترعة فكان على يميننا البر الموالى لمصر وعلي شمالنا البر الموالى للشام، وهى راسية كأنها واد من الأودية، ولم نخرج منها إلا فى الساعة الثامنة من الصباح التالي حيث رست السفينة بميناء "السويس" الذى تحيط به الجبال حيث وجدنا سفينتين أخريين ممتلئتين حجاجا.

وتبعد السويس عن " الإسكندرية" بأربع ساعات ركوبا، كما تبعد عن مصر بسبع ساعات فى السفينة أو فى البر.

وفى الساعة العاشرة إلا ربعا أقلعت السفينة ماخرة عباب البحر الأحمر طيلة يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء إلى ما قبل فجر الخميس بساعتين، ٢٨ من ذى القعدة حيث أعلنت عن ميقات الإحرام من «رابغ».

---

* مايو (أيار).

"الرحلة" للعلامة سيدى محمد التوزانى
أحمد سكيرج
(١٨٧٧ - ١٩٤٤)

الشيخ أحمد سكيرج ، عالم ومتصوف ، ارتحل إلى الحجاز سنة ١٩١٦ ثم عاد إلى أسفار أخرى بالمغرب العربى قبل أن يعود إلى مصر سنة ١٩٣٣ . يوم الأربعاء٢٧ جمادى الأولى سنة ١٣٥٢ .

أحاط به أصحابه رضى الله عنه من الأحباب التجانيين وغيرهم يودعونه ويودعون الراحة والأنس إلا ما يروِّحُ عن أفئدتهم الفياضة بحبه من أمل فى عودته المحمودة. وما إن تشرفت السيارة بجلوسه فيها فى مصر الجديدة حتى كنتَ تلمس الألم فى قلوب أولئك الذين شغفهم وأدهشهم إجلالا وإكبارا وحبا خالصا لله عز وجل. فدعا لهم بخير وللمسلمين قاطبة ولمصر ولمن فيها، وسافر ترافقه سلامة الله عز وجل ورعايته يصحبه سيدنا السيد محمد الحافظ والصادق النجيب الأستاذ محمد سعيد على الأفندى والأخ اللبيب حسين أفندى أحمد الشيخ ليودعوه إلى السويس.

فوصلت السيارة إلى السويس وكان الأحباب التجانيون في الانتظار، ومندوبان من قبل قنصل فرنسا الذى أحسن مقابلته وقام بجميع التسهيلات اللازمة وأحسن الوقوف معه حتي ركب البحر، فأرسل القنصل برقية إلى نائب جمعية أوقاف الحرمين الشريفين المحترم سيدى الحاج حمدى أبى القاسم الجزائرى بالأقطار الحجازية يبشره بوصول سيدنا رضى الله عنه.

ومن إكرام الله عز وجل للشيخ - رضى الله عنه - شأنه سبحانه مع أحبابه أن ميعاد سفر الباخرة كان يوم الأربعاء وهو يوم وصوله إلى السويس، وكان لابد للمسافر من عمل الوسائل الصحية كيفما كانت مكانته، فبدا اللطف الإلهى إذ احتاجت الباخرة إلى إصلاح اقتدى تأخيرها إلى صباح الخميس ويسر الله جميع الوسائل، فسافر يوم الخميس ووصل جدة صباح الأحد.

●●●

خطبة سُكيرج فى مصر

ولقد منَّ الله على بأن مررتُ على هذا القطر السعيد الذى طالما تشوقت لأن أصل إليه وأنظر إلى مثل هذه الوجوه. وإنى

أرى نور الذكاء يلمع فى أسرة وجوههم التى تكاد إذا نظرت إليهم أن تطلع على ما فى قلبك فتجدنى أخضع لمن نظرت إليه وأخشى أن يفتضح له جهلي. ولقد وجدت فيهم ذوى صدور رحبة نور الله قلوبهم وكشف عنها سائر الحجب فأقبلوا علينا ورأينا منهم مودة ومحبة، وزاد برُّهم على أهلي بل هم والله أهلى بارتباط القلب بيني وبينهم أخص منهم ذلك الفاضل الذى تجسدت فيه الفضيلة فى صورتها الجميلة ذا الوجه الحسن :

«التمسوا الفضل عند حسان الوجوه» والصدر الرحب بلغة الله الحكمة ذلك الحجة الحافظ الشيخ محمد الحافظ وأنعم به من رجل حبب إلى أن أجول معه لصلة بعض رحمة من تلاميذه ويا حبذا حتى وصلت هذه البلدة السعيدة.

ولقد رأيت فى مصر العجب العجاب مما لا يخطر على بال ذوى الألباب. رأيتُ علماء أجلاء وحكماء أفاضل وسادة أماثل. إذا أردت أن أصفهم بكل لسانى أشرقت أنوارهم حتى وصلت إلى المغرب، أتتنا منهم المؤلفات والمكاتبات الباهرة فاقتبسنا منها علوما فحيا الله علماء مصر وأهلها. ولم أر فى مصر القاهرة وحدها تلك الوجوه المستنيرة بل كلما مررت

على بلدة رأيت تلك الصورة الجميلة وذلك الذكاء المفرط والصدور الرحبة. وكنت أظن أن كل من يلبس لباسا أفرنجيا ينقص إيمانه، والآن رأيتهم مؤمنين حقا علماء بالدين محبين لأهل الله فبشراهم ثم بشراهم وأهنىء الأمين بمدرسته ومدرسيه وتلامذته، وأرجو لهم الخير وقد أشرقت بوادره وسيتبعه الله بفيوض الخير الدائمة إن شاء الله تعالى : زاد الله من أمثالهم وأسأل الله أن يفتح علينا ويبلغنا جميعا غاية المأمول والسلام عليكم ورحمة الله .

ذكرى سفر - ١٩٣٣
أحمد الهوارى
(توفى سنة ١٩٥٣)

أحمد بن محمد الهوارى ، رئيس تحرير جريدة السعادة ، الذى قام برحلة حج وسياحة سنة ١٩٣٤ ، دوّن مشاهداته بأسلوب الصحفى والأديب .. فجاءت تحفة ناطقة عززها ببعض الصور التى تؤرخ لتلك اللحظات منذ وصوله مرسى بورسعيد فى السابع من فبراير ١٩٣٤ .

فى مرسى بور سعيد

لما رست الباخرة فى المحل المُعد لها بمرسى بورسعيد قرب أحد المرافئ، صعد إليها رئيس البوليس وبعض أعضاء دائرته مع نواب المجلس الصحي، وجعلوا منهم إدارة فى الردهة الكبرى للدرجة الأولى حيث كان الأمر لهم إذ ذاك لفحص جميع جوازات السفر، وكانت جوازات الحجاج بالطبع من جملتها فوجدوا المطبوعة منها بالقنصلية الانجليزية بفاس والرباط تامة الشروط اللازمة للدخول إلى مصر، بمعنى أن

فيها التصريح بالدخول إليها، والمطبوعة بالدار البيضاء غير كافية لذلك حيث جعل عليها فقط ان أصحابها مأذون لهم بالذهاب إلى الحجاز، والحال أنهم طلبوا طبعها فى مدينتهم للدخول إلى مصر وأدوا الضمانة المعهودة فوجدوها كما ذكر (حسبما سمعنا منهم ذلك)، ومن اجل ذلك اضطروا إلى أداء ٢٠٠ فرنك لأجل الدخول إلى مصر مع ٦٠ فرنكا لأجل الطابع وبعد ذلك نزل الجميع فى زورق خاص أقلهم لمحل الكرنتينة وهو محل الفحص الطبى، ورغما عن الشهادات الطبية التى صحبوها معهم من بلادهم أرغموا على الجلب ضد التيفوس بدعوى أن هذا التلقيح لم يصرح به فى جملة التلقيحات المشهود لهم بها، فكان الموقف عند ذلك مما يبعث على الأسف الشديد على هؤلاء الناس الذين لا ذنب لهم إلا كونهم وسموا (بلفظة حاج)، فنظمت صفوفهم بين رجال و نساء و أطفال وأجرى لهم التلقيح بإبرة غليظة تمر عليهم جميعا بدون مسحها او تطهيرها من اثر هذا أو ذاك، مع التطاول والغلظة عليهم فى القول وحيث كان بيد كاتبه تصريح خاص بالسياحة فقد أراحه الله من هذا الصراط (البور تسعيدى) وأذن له فى المرور وكذا رفيقه السيد الحاج محمد بن جدية، ولكننا

اضطررنا مع ذلك إلى انتظار بقية الرفقاء وأدينا واجب الكرنتينة وهو ١٥ فرنكا للنفر مع ١٥ فرنكا أجرة النزول من الباخرة.

فى القاهرة

وبعد نزول وتسليم تذاكر السفر على نظام المحطات الراقية أخذنا إحدى سيارات النقل، فذهبت بنا مسافة طويلة إلى أن نزل الكلوب العصرى الذى اخترنا النزل فيه أولا لقربه من مقام سيدنا الحسين واحتوائه على أسباب الراحة الملائمة للمسلمين، وتقدم النزول فيه لمن قبلنا وهو نزل ذو ثلاث طبقات وبيوت حسنة بأثمان متهاودة من ٥ إلى ١٠ قروش للمبيت، ثم بعد بضعة أيام انتقلنا منه إلى نزل البرلمان لوجوده بالعتبة الخضراء التى هى وسط المدينة، ومنها تتفرع جميع فروع سكة الطراموای لجميع جهات المدينة وهو أحسن من الأول ويزيد عليه بآلة الصعود إلى طبقاته، وما له من الاشراف على العتبة المذكورة وحسن الإدارة وأثمانه تتراوح بين ٧ الى ١٠ قروش للبيت أو الفراش. وفيه جمعتنا الأقدار بالصديق الأديب السيد احمد الزبدى مع أنجاله الكرام على إثر قدومه للقاهرة ثم بعد الاستراحة أخذنا فى زيارة أضرحة العظماء

والمعاهد وغيرها من المآثر والمحلات المناسبة للزيارة من محاكم وإدارات وغيرها مما قضينا فى القليل منه نحوا من خمسة عشر يوما.

وحيث شاءت الأقدار الإلهية أن يكون نزولنا فى القاهرة عند إلقاء عصى التسيار بها فى جوار بضعة طرية من آل بيت الرسول الطاهرة، وهو سيدنا الحسين بن الإمام على ابن أبى طالب كرم الله وجهه وابن سيدتنا فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجب علينا أن يكون أول ما نقوم به فى عاصمة الفراعنة هو زيارة ضريحه المبارك الذى أكرمنا الله بجواره، ونحن نعلم أنه ورد فى حق دفينه عن النبى صلى الله عليه وسلم (من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى الحسين بن علي).

دخلنا أولا لمسجد سيدنا الحسين وهو مسجد كبير من أهم المساجد التى تقام فيها الجمع والتدريس فى القاهرة ومن أبدعها زخرفة وأجملها فراشا، ومنه دخلنا من باب قرب المحراب إلى الروضة الحسينية الكائنة فيما وراء الجدار القبلى للمسجد، وقد قام فى وسطها مشهد هذا الإمام العظيم تكسوه حلل فاخرة من الحرير الموشى بالذهب وتحيط

به مقصورة عجيبة الصنع من النحاس المخرم، ونقشت على جميع جدرانها فى الجبص والزليج والرخام آيات قرآنية كريمة، وسطعت من أركانها أنوار بيت النبوءة الهاشمية وانتعشت فيها الأنفاس بروائح ذكية كأنها من طيب الجنان وقد وجدنا هناك من جليل الآثار التى يحق أن تشد لأجلها الرحال آثار نبوية شريفة؛ منها شعرتان من اللحية النبوية الشريفة قد حفظتا فى زجاجة خاصة داخل صندوق من الفضة، ومنها المكحلة والمرود الشريف ومنها قطعة من القضيب الشريف وقطعة من القميص النبوى الشريف ومصحف كريم بخط سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه مكتوب بالقلم الكوفى على رق الغزال، وآخر بخط سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه. وكل درة من هذه الدرر الثمينة موضوعة فى محل خاص بها فى غاية الوضع والأحكام وقليلا ما ينتبه الحجاج إلى السؤال عنها وبسط اليد لمن يدلهم عليها فيضيعون فرصة ثمينة ربما لا تتيسر لهم بعد.

«دليل الحج والسياحة»
رحالة مغربي مجهول
زار مصر، عابرا نحو الحج، ستة أيام
(١-٦ مارس ١٩٣٤)

رحلة القول المستقصى عن الرحلة لبيت الله الحرام والمسجد الاقصى، مخطوطة مؤلفها مجهول، خرج من فاس نحو طنجة التي غادرها بالباخرة يوم الاربعاء ٢١ فبراير ١٩٣٤ (سادس ذو القعدة ١٣٥٢)، وسيصل إلى مصر عبر ميناء بور سعيد يوم الخميس ١ مارس ١٩٣٤، فيقضي ستة أيام تجول في أسواقها ومساجدها ومآثرها. وفي ما يلي مقطع دخوله وانطباعه الأول عن مدينة القاهرة.

ومن الغد، وأعني به يوم الجمعة الموالي ليوم وصولنا، استأجرنا سيارة نقلتنا للقاهرة، مررنا في طريقنا إليها على مدينة بليس ألبسها الله الجمال ورونقه بهجة المنظر، وأيضا شبه قرية صغيرة تُعرفُ بأبي صوير وبجوارها محل الطيران

الإنجليزى ، ثم أيضا على مدينة تسمى أبى عماد مكثفة بأشجار النخل ، يليها شمالا وادى النيل ، جارية به مراكب للصيد بمناسبة اضطرار الأهالى سكانها وفاقتهم ، وأيضا مدينة أخرى بعدما جزنا قنطرة الوادى المذكور ثم مدينة الإسماعيلية ، يلوح عليها رونق وبهاء وبها من النخيل مالا يكاد يدخل تحت العد والإحصاء كثرة .

ومنها وصلنا للقاهرة مصر الأمصار ، ذاك البلد الفخيم ومركز الاعتبار فى الحديث والقديم ، حللناه فى الساعة الثانية عشرة نهارا مُحاطين بالسرور والابتهاج وانفراج الأزمة أى انفراج ، بلد يقصر القلم عن استيفاء وصفها ويكل اللسان ولو مد اشراكه عن استقصاء نعمها ، أسواقها زاهية زاهرة وشوارعها نظيفة نقية ومتاجرها نافقة رائجة ومساجدها تلوح عليها جلالة الملة الحنيفية السمحاء ، غنية بفقهاء ومُدرسين وخطباء على أنها يصدق عليها كل الصيد فى جوف الفراء ، شأن الأمصار الكبيرة الجامعة بين الغث والسمين ، الوضيع والثمين ، هذا متخلق بالأخلاق العربية وهذا مشغوف بالمدينة الغربية ولله فى خلقه أيات ...

القول المستقصى عن الرحلة لبيت الله الحرام والمسجد الأقصى

عبد الرحمن بن زيدان

(١٨٧٨-١٩٤٦)

رحل المؤرخ عبد الرحمن بن زيدان إلى الحجاز مرورا بمصر والشام سنة ١٩٣٨، فخصص فصلا لزيارته المصرية وما عاشه من لقاءات رسمية مع علمائها .

أمير مغربى فى القاهرة

وما كدنا نرفع خطانا لنضعها بأرض الكنانة لزيارة معاهدها ومؤسساتها والتعرف إلى رجالاتها والبحث فى نظمها العلمية حتى اقتبلتنا مصر بما فطر عليه أبناؤها من حفاوة زاهرة دعت أغلب الجرائد الكبرى إلى الكتابة عنا والتحدث عن زيارتنا فى شتى المواضيع، والحق أن المصريين بلغوا الدرجة القصوى فى مهنة تحرير الصحف وتعدادها وتنوعها مما يضاهى أرقى صحف الغرب اليوم، ولهم أكبر

شغف بمحادثة ذوى الهيئات الذين تفد على الكنانة والكتابة عنهم والاستفادة منهم بلباقة ومهارة عجيبتين، وقلما يسلم الوافد من صحفيين يلقون إليه بالمودة ويتبعونها بسيل من الأسئلة عن بلاده وسير حركاتها وتقدمها، وقد كنا نجدها فرصة مناسبة للتعريف ببلادنا وشرح نظمها ومدى النهوض فيها علميا وأدبيا واجتماعيا، وسيعلم القارئ أن معظمهم يجهل بلادنا جهلا شانيا، إن لم يكن يلفق عنا حكايات وشعوذات لا ظل لها من الحقيقة إلا فى ذهن متخيليها، فاستطعت بقدر الإمكان أن أرد إليهم اللوم فى الجهل بنا وتصويرنا على غير الوجه الحقيقى والمنطق المصيب، وكان الذين لقيتهم وتحدثت إليهم اقتنعوا بالحجة وأدركوا أنهم غير مصيبين فى أحكامهم علينا، فاعتذروا كثيرا وخجلوا أكثر.

ومن جهة حديث الصحف المصرية عن وجودنا ببلادهم، فقد أخبرتْ بذلك جريدة المقطم قيدومة جرائد الكنانة فى عددها المؤرخ ب ٣ صفر ١٣٥٧ موافق ٣٨/٤/٤. ولا بأس أن ننقل هنا كلمتها، قالت تحت عنوان " أمير مغربى فى القاهرة": قدم القاهرة حضرة صاحب السمو الأمير عبدالرحمن بن زيدان نقيب الأسرة المالكة فى المغرب الأقصى

وابن عم عظمة سلطان المغرب عائدا من الحجاز، وسيقيم فى القاهرة أياما، وقد زار اليوم الجامع الأزهر، وسيؤدب له سعادة وزير فرنسا المفوض مأدبة غذاء فى دار المفوضية يوم الأربعاء يدعو إليها/ معالى حلمى عيسى باشا وبعض الكبراء.

●●●

وقد لاحظنا عند زيارتنا لكل إدارة من إدارات الصحف المصرية أن كثرة أسئلتهم تدور حول مسائل العلم وطرق التدريس بالمغرب خاصة، ما يدل على أن العلم يشغل كل فكر ويكاد يكون أول موضوع وآخر موضوع يطرق فى كل ناد ومجتمع، وهذا وحده يبرهن على يقظة الفكر وثبات الذهن فى الأقطار الشقيقة، فما كدت أصل إلى جريدة البلاغ هناك وأصافح هيئة تحريرها حتى طرح على هؤلاء سؤالا في موضوع مراكش وأهلها وحالة التعليم فيها، فأفضت بهذا الحديث الذي ننقله عن البلاغ المؤرخ ب ٩ صفر موافق ٤/١٠ قال / تحت عنوان:" الأمير ابن زيدان يحدثنا عن المغرب الأقصى: التعليم في الجوامع والتعليم في المدارس الحكومية: تفضل بزيارة دار البلاغ أمس صاحب السمو السلطاني

الأمير عبد الرحمن بن زيدان نقيب الأسرة المالكة فى المغرب الأقصى يرافقه الأستاذ إبراهيم عثمان المراكشى، ودارَ الحديث حول مراكش وأهلها وحالة التعليم فيها، فأفضى الأمير ابن زيدان بحديث طريف فى ذلك نلخصه فيما يلى، قال: إن التعليم ينتشر الآن فى المغرب الأقصى انتشارا يدعو إلى الرضا، والتعليم نوعان؛ نوع دينى ونوع غير ديني، فالتعليم الدينى محله الجوامع الكبيرة؛ وهى جامع القرويين فى مدينة فاس، والجامع الكبير فى مدينة مكناس، والجامع الكبير بمدينة الرباط، وجامع ابن يوسف فى مدينة مراكش، والعلوم الشرعية التى تدرس فى هذه الجوامع هى الحديث والأصول والنحو والصرف والبيان والتفسير والمنطق والتوحيد، ولا دخل فيها للعلوم العصرية، وبجانب كل مسجد عدة أمكنة تسمى مدارس لسكنى الطلبة الأغراب الذين يتعلمون فى المساجد، وفى كل مكان من هذه الأمكنة محل للصلاة، ولهذه المدارس أوقاف محبوسة عليها تصرف للطلبة الخبز فى كل يوم، ولكل مدرسة قيم مكلف بها وفى بعض هذه المدارس علماء لإعطاء الدروس للطلبة فى بعض الأوقات، والجوامع التى مر ذكرها ليس لها نظام فى الدخول ولا فى

التعليم بل الحرية متروكة للطلبة فى الحضور وعدم الحضور فهى من هذه الناحية تشبه الجامع الأزهر فى عهده القديم، ولكن هناك جامعا واحدا هو جامع القرويين أدخل فيه النظام من أربع سنوات، فوضعت له قواعد لقبول الطلبة وللتعليم، والذى أدخل هذا النظام هو جلالة السلطان الحالي، فتمم بذلك ما ابتدأه المرحوم والده السلطان يوسف، وللسلطان الحالى عناية كبيرة بالتعليم والعلماء وهو يشرف بنفسه على التعليم وبرامجه ويحض العلماء على الجد والحزم كلما سنحت الفرصة لمقابلتهم. وللتعليم الدينى مجلس إدارة فى البلاط، وهذا المجلس مكون من الوزراء ومن شيخ الجماعة، وشيخ الجماعة يشبه شيخ الأزهر فى مصر، ومراقب التعليم، وهذا المجلس يضع تقارير عن سير التعليم يرفعها إلى جلالة السلطان. وعدد الطلبة فى جامع القرويين ١٥٠٠ وفى الجوامع الأخرى من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ فى كل منها.

الرحلة إلى الحجاز ومصر والشام

ماء العينين بن العتيق

(١٨٨٧م- ١٩٥٧م)

انطلقت رحلة الشيخ ماء العينين بن العتيق يوم ١٥ ديسمبر ١٩٣٨ ضمن ركب حجاج الساقية الحمراء ، بحرا من ميناء طرفاية نحو مدينة لاس بالماس بجزر الكنارى، وتوقفوا وهم على ظهر الباخرة ببور سعيد ثم السويس فى ٢٧ من ذى القعدة حيث كان لهم لقاء مع ولى عهد الخليفة السلطانى ومن كان معه من رجال الوحدة المغربية بمصر لطلب العلم .

البحر والقنال :

ثم لما كان وقت القيلولة يوم السبت الثالث والعشرين من ذى القعدة الحرام ، أقلعت الباخرة بنا من طرابلس فى وجهتها للحرم الشريف بعون الله قاصدة بور سعيد ، فلما كانت صبيحة يوم الثلاثاء السادس والعشرين من ذى القعدة، رست بنا الباخرة فى مرسى بور سعيد ، وهى مدينة مصرية على مدخل قنال السويس من جهة الشمال ، أنشئت سنة ١٢٧٧ عند الشروع فى حفر القنال فى عهد الخديوى سعيد

بن محمد علي ، وهي من أجود الموانئ المصرية ، ولها مستقبل كبير ، وربما حلت محل الإسكندرية لكونها أقرب إلى سواحل أوربا .

فلما كان أول وقت العصر من يوم الثلاثاء المذكور ، سارت بنا الباخرة آخذة قنال السويس ، وهو الخليج المحدث منذ سبعين سنة ، قرنَ بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ، وهو بحر القلزم ، وقد لبثت العَمَلة في اتصال البحرين المذكورين عشر سنين ، وذلك من تاريخ ١٨٥٨ مسيحية إلى ١٨٦٩، فتم القنال.

●●●

ثم رست بنا الباخرة وقت انتصاف الليل عند مدينة السويس ليلة الأربعاء، فلما كانت صبيحة يوم الأربعاء طلع علينا في الباخرة ولي العهد ابن الخليفة المولي الحسن بن المولي المهدي، سميّ جده المولي المهدي، ومعه من كان بمصر من رجال الوحدة المغربية لطلب العلم صحبة كبيرهم الفقيه الشاعر الأديب السيد محمد بن اليماني، ومعهم راعي بيت المغرب بمصر الأستاذ محمد حبيب أحمد المدرس بكلية أصول الدين والسكرتير لشيخ الجامع الأزهر ، ففرح أهل الباخرة بطلوعهم، وأقاموا لهم حفلة حسنة.

وتحادثنا ساعة مع السيد محمد بن اليمانى وراعى بيت المغرب الأستاذ محمد ، فوجدنا لكل منهما مشاركة فى العلم وأدبا رائقا ومعرفة زائدة ، ثم توادعنا معهم ، وأقلعت الباخرة بنا متوجهة جدة فى حفظ الله وأمانه وقت العصر من اليوم المذكور .



السويس فى الإياب :

أقلعت بنا الباخرة ، فرست صبيحة يوم الأربعاء فى السويس فى محلها الذى رست بنا فيه، ونحن ذاهبون إلى الحج ، فلما ارتفع النهار، طلع علينا ونحن فى الباخرة الأستاذ العلامة الشيخ محمد حبيب الله بن الشيخ سيدى عبدالله بن مايابى الجكنى، ومعه الأديب المجيد السيد محمدبن اليمانى المتقدم ذكرهما، ففرح بهما الشيخ مربيه ربه وسائر الوفد ، ورفع الشيخ مجلسهما، ومعهما الأديب الشيخ المختار ابن أحمد محمود الجكنى، القاطن بمصر وقته، وأتحف الشيخ محمد حبيب الله سيادة الشيخ مربيه ربه وأقرباءه بشىء من الكتب، منها ما هو من مؤلفاته، ومنها ما

هو من غيرها، وتحدثنا معه قدر ساعتين وكتبَ لى إجازة فى مؤلفاته وجميع مروياته ، وأتحفنا أيضا بشيء من الزاد معتبر ، وأنشدنا قطعة لنفسه ، أنشأها فى مدح سيادة الشيخ مربيه ربه ، وتهنئته بالحج ، كتبها بخطه .

الرحلة المعينية
محمد بن الحسن الحجوى
١٨٧٤ - ١٩٥٦

محمد الحجوى أحد كبار العلماء والمثقفين المغاربة ، كتبَ في مجالات متعددة حتى تجاوزت مؤلفاته المائة .

سافر إلى الحج بالطائرة رفقة ولديه وعدد من أصدقائه من مطار سلا يوم الاثنين ٢٠ أكتوبر ١٩٤٦ . وتوقفوا في الجزائر وتونس وليبيا ولم يصلوا إلى القاهرة إلا يوم الأحد ٢٧، وغادرها فى اليوم التالى الاثنين ٢٨ أكتوبر ١٩٤٦ على متن الطائرة نحو مدينة جدة .

ولقد ظهرت لنا مصر ونحن فى الجو : مدينة عظيمة وهى الآن أعظم مدينة عربية إسلامية راقية ، فأغلبية أهلها عرب لغة ونسبا وثقافة : ملْكها عربى ، ودينها الإسلام الراقى الأخلاقى، تملكت قلوبهم وألسنتهم العربية ، وحُب العلم والمعالى، وملأ أكفهم الأصفر الرنّان ، لهم كريم الشيم والأخلاق ، حملوا راية العروبة والإسلام من لدن الصدر الأول

من التاريخ العربى، ما نزلوها إلى الآن. وحملوا العلم العربى الإسلامى على كافة الشعوب العربية فى أفواه رجالهم ونقولهم ، وسطروه فى تواليفهم التى فاض بها بحر العرفان إلى كل قطر وصقع ، فأغلب التواليف التى بها الدراسة الآن من صنع أقلامهم السيّالة ، يشاركهم الشام والعراق والحجاز والهند وغيرها فى بعضها ؛ ولكن بحر مصر قد طمى بما هاج من أمواج تواليف مصر الآن ، فلا تجدُ الآن فى أغلب مدارس العربية ومعاهدها ، إلا تواليفهم العصرية الجديدة الآن ، يدرس بها ويشفع العالم من معينها ، وما هو من تواليف غيرهم على كثرة البلاد الإسلامية واتساعها إلا طنين تواليفهم.

وصف مصر من الطائرة

لم يكن منظر مصر من الطائرة كمنظر فاس أو مراكش أو غيرها من المدن القديمة كتلة من البناء، متصلة يتكئ بعضها على بعض ، ومصر أيضا أقدم منها ، ولكن تظهر أبنيتها قصورا شامخة يفضل بعضها عن بعض ، طرق منظمة .

لما ظهرت لنا الديار المصرية رأينا مدينة راقية منتشرة فوق فجاج مستو من الرمل الأحمر، ذات بنية شامخة فى الجو، لها طرق منتظمة متسعة، تسبح فيها سيارات كثيرة كأنها النمل تغدو وتروح، تتخللها ميادين متسعة وجنات فيحاء تزيدها بهجة وكمالا، ويخترقها من بعض الجهات واديها العظيم، أعنى النيل الذى هو أشبه بعروق الحياة المتخللة لبدن الإنسان ، تلتف حوله الأشجار اليانعة، والقصور المدرسية والإدارية والأميرية الشامخة المستجدة البنيان، والمدينة على أرض مستوية فيحاء ، يطل عليها من ناحية جبل المقطم .[...]

منظر مصر من داخلها

قد بيّنا بعض البعض من منظرها الخارجى ، فأما منظرها الداخلى فيُمكن أن نلخصه فى وجازة بأنها قد صيّرتها العائلة المالكة من لدن إسماعيل باشا باريز العروبة، فإنك ترى فيها جُل ما هو موجود فى عواصم أوربا كباريز، ولندن، وبرلين، ورومة، وبروكسيل وغيرها ؛ من الأناقة والإتحاف فى ظاهر الدور والإدارات والمعابد والمخازن من كل ما يسمى الآن بالرقى والتقدم الظاهرى، وتصنيف الأبنية

وتنجيدة زخرفتها ، وإتحافها مما يُبهجُ الناظر، ويشرح الخاطر، مع اتساع الشوارع وتنظيمها، وكل ما يقرب المسافات من أطومبيلات وحافلات وما إلى ذلك مما قد اكتظت به شوارعها؛ وكل من النوع الراقى الدال على مظاهر الغنى والرفاهية ، فلهى أبهج العواصم وأحفل المدن الراقية وأجملها، وشعبها أهدأ شعوب وأبعدها عن القساوة وفكرة الحرب والفتن ، وإنما هو شعب العلم ومكارم الأخلاق والمدنية، وأميل للاكتساب والرفه ، والله يعينه ويوفقه ..[...]

زيارات

إننى فى اليوم الذى أصبحت فيه بالقاهرة يوم الأحد ٢ من ذى الحجة ١٣٦٥هـ، توجهت مسرعا بأشواق عربية إسلامية لزيارة الأزهر الشريف، فزرت أولا مشهد الإمام الحسين سبط الرسول الأعظم عليه وعلى العائلة النبوية جميعا أزكى السلام، ومنه توجهت للأزهر الشريف، ومتعت الطرف فى كل تلك المعابد التى أسست على حب الرسول، وحب الدين الحنيف الذى رفع منار العروبة على بطاه الأرض الأسيوية والإفريقية وكل بقاع المعمور؛ ومكثت فى الأزهر أزور رحابه وكتبته، وكتبه النفيسة الخطية التى بها ارتقى

الإسلام والعربية الفصيحة الحذونة ومكثت بالأزهر إلى أن صليت المغرب، ولقيت هناك عددا من الطلبة يرتشفون معين العلم بالدروس والمذاكرة، ومنهم البعض القليل من المغرب الأقصى والأوسط والأدنى، وقد التفوا على يسألون عن الأحوال، وعن ما يعرض لهم من العلم والدين.

●●●

بكرتُ لزيارة دار الكتب المصرية التي رأيتُ فيها ما يملأ العين منظرا حسنا، والفؤاد إعجابا، والقلب ارتواءً، ولو لم يكن في مصر إلا الأزهر الشريف وهو المسجد الجامع بين العبادة، والانهمار بحياض المعارف والعلم، مع مكتبتها الغنية بالكتب العتيقة النفيسة، وأعظم منها دار الكتب التي جمعت كل ما لذ وطاب، وملأت بدفاتر العلم على اختلافها كل الرحاب، وأزيدك على ذلك معهد المعاهد ومعجزة المفاخر جامعة فؤاد التي أسست منذ نحو عشرين سنة فقط، وتسمى جامعة فؤاد تخليدا لاسم مؤسسها فؤاد الأول، وهو والد فاروق الأول الملك الجالس الآن على سرير الفراعنة، وهو الشاب الصالح الناشئ في ترقية مصر، والساعي في إتمام استقلالها، والقائم بإكمال وإتمام كل ما هي محتاجة إليه من

إعزاز وإعظام وترف ومجد، وزد على ذلك ما احتمى بهذه الجامعة من كليات للعلم والأدب، وما هو منبث في شوارع العاصمة من كليات كثيرة: منها ما هو منتسب للأزهر ككلية الشريعة التي تدرس بها العلوم التي يحتاج إليها القضاة ومنها يتخرجون، والمفتون وغيرهم من أساطين الشريعة، والحاملين لمشاعلها المضيئة لمصر، وكلية الأصول، وكلية الحديث، وكلية التدريس (بداغوجيا) وغيرها، ومنها ما هو مضاف للجامعة وبلصقها ككلية الآداب، وكلية الحقوق وغيرها، فرضي الله عن مصر وعن رجالها الأفذاذ الذين تلطفوا حتى أخرجوها من حجر الإنجليز، وانتزعوا من يده الفولاذية ميزانية بلادهم، وبرهنوا على أنهم سياسيون أكفاء، نزهاء وطنيون حقيقة لا مجاز فيه، وليلة تأسيسهم للجامعة والكليات العديدة في ظرف نحو العشرين سنة وهم وإن بنوا على ما أسسه من قبلهم في الأزهر ومضافاتهم وغيرها من المعاهد؛ لكن ما شيدوه وزادوه، أنسى ما عمله من قبلهم بكثرته وإتقانه، وهو لا يقل عما أسسته أوروبا في عواصمها، بل يفوق الكثير منه، وذلك في هذه المدة القصيرة، وعلى كل حال: إنني أقمت بمصر يومين اقتصرت فيهما على زيارة

الأزهر، والحسين، وقلعة محمد على رأس العائلة المالكة ومؤسسها، ومسجد القلعة الذى لا يوجد له نظير فى إفريقيا الشمالية كلها، وربما فى غيرها إذا استثنينا المسجد الحرام بالنظر لاتساعه، ووجود الكعبة المشرفة وسطه، وسنعود إلى تتميم الكلام على معاهد مصر إن شاء الله حيث إنى ما مكثت بها فى التوجه إلا يومين، نعم فى العودة من الحجاز، مكثت خمسة عشر يوما.

محمد بن الحسن الحجوى : «الرحلة الحجازية»

أبو بكر القادرى

(١٩١٤- ٢٠١٢)

رحلة أبو بكر القادرى سنة ١٩٥٧ فيها الكثير من المعطيات التاريخية والثقافية التى تهم مصر والمغرب فى تلك المرحلة الانتقالية .

فى القاهرة

بعد انتهاء مهمتى فى بيروت، قصدت عاصمة بلاد الكنانة (القاهرة) حيث كان فى استقبالنا القائم بأعمال السفارة المغربية المرحوم الأستاذ أحمد بن المليح، ولقد نزلت فى فندق (انتير كونتينانتال) وبعد وصولى مكننى الأخ المرحوم أحمد بن المليح المذكور، من برقية وصلتنى من ابنى خالد، وفيها إخبار بازدياد ولد عندي، أسميته محمدا أصلحه الله، وأنبته نباتا حسنا وذلك بتاريخ ٢٦ يوليوز ١٩٥٧ .

مع البطل محمد عبد الكريم الخطابى

وقمت بعدة نشاطات فى القاهرة، كان من جملتها الاتصال بالسيد أنور السادات الذى كان إذ ذاك رئيسا

المجلس الأعلى للآداب والفنون *، والسيد عبد الخالق حسونة، الأمين العام للجامعة العربية، ووزير التربية الوطنية السيد كمال الدين حسين، والأستاذ عباس محمود العقاد، والبطل محمد بن عبد الكريم الخطابي، وأخوه سى محمد، اللذين أقاما لى ولإخوانى المرافقين لي، حفلة غداء، تناولنا خلالها عدة أحاديث متنوعة، وبالأخص ما يتعلق بالحالة فى المغرب بعد الاستقلال، والخطوات التى يخطوها لتدعيم هذا الاستقلال، وفى حديث انفرادي، بينى وبين الزعيم البطل رحمه الله، انطلق يحدثنى برحابة صدر، وينصت باهتمام لتعليقاتي، وشروحى عن الحالة فى المغرب، وتصوراتنا عن مستقبله الدينى والسياسى والوطني، ولقد شعرت وأنا أتحدث إليه أن كثيرا من التصورات التى عندنا، كانت عنده مشوهة؛ وانه يتلقى شروحى بارتياح كبير، وشخصية الزعيم جذابة، وبسيطة، فى آن واحد، وهو غيور غيرة كبيرة على دينه وعقيدته، ويريد للمغرب أن يسير فى الخط الاسلامى، ويبنى

* تأسس المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب عام ١٩٥٦ ولم يتول السادات رئاسته: حيث عمل عام ١٩٥٤ فى منظمة المؤتمر الإسلامى، ثم تولى رئاسة تحرير جريدة «الجمهورية». «الهلال»

نهضته على أساس الإسلام، وكم كان انشراحه عندما انطلقت واياه فى تحليل بعض الأفكار والمبادئ الإسلامية فكان يقول ما معناه : هكذا أنتم تتصورون وتخططون، ويعبر لى عن اتفاقه التام معنا فى تلك الأفكار. أما عن اتصالى بالسيد أنور السادات فلقد كان بمنزله حيث استقبلنى استقبالا خاصا، صحبة المرحوم أحمد بن المليح، فدارت الأحاديث فى مواضيع شتى أشرت إليها فى التقرير الذى رفعته لجلالة الملك المنعم سيدى محمد الخامس، بعد رجوعى إلى المغرب، والذى يوجد ضمن هذه الرحلة، ولدى وداعه أهدانى نسخة من كتاب للأستاذ عباس محمود العقاد، كان ألفه حديثا وعنوانه : «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» . أما السيد عبد الخالق حسونة فلقد عبر لى أثناء حديثه معى، عن انشغاله بتأخر انضمام المغرب إلى الجامعة العربية، وكان إذ ذاك لازال لم ينضم إليها رسميا، وأما زيارتى لوزير التربية الوطنية فكان أساسا حول تزويد المغرب بما يحتاج إليه من أساتذة جامعيين وثانويين، وتوثيق العلاقة الثقافية بين المغرب ومصر، والروابط المتينة التى تربط الشعبين الشقيقين، مصر والمغرب، والواقع أن اتصالاتى مع الشخصيات المصرية كانت مفيدة ومثمرة والحمد لله.

المجلس الأعلى للآداب بالاسكندرية

ووقفنا لما كلفت به من طرف وزير خارجيتنا إذ ذاك المرحوم أحمد بلافريج، ذهبت إلى الاسكندرية للمشاركة، فى الاحتفال الذى نظمه المجلس الأعلى للآداب والفنون، بمناسبة مرور ربع قرن على وفاة الشاعر المصرى الكبير حافظ إبراهيم، والذى انعقد فى فندق سان استيفانو بتاريخ ٢٥ يوليوز ١٩٥٧ ودام إلى ٢٩ منه، وألقيت فيه عدة كلمات وأبحاث، وكان من جملة المتحدثين رئيس المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، السيد أنور السادات * والأساتذة : عزيز أباظة، والدكتور محمد صبرى، وأحمد حسن الزيات، وشفيق جبرى من سوريا والدكتور عبد الوهاب عزام، وعبدالرحمن صدقى، وشوقى ضيف، وكامل الشناوى، والدكتور محمد مندور، ويوسف السباعى، وغيرهم، ولقد ألقيت فيه كلمة أشرت فيها إلى الروابط التى تربط المغرب بمصر، والعراقيل التى كان يقوم بها الاستعمار الفرنسي، لفسخ هذه الروابط، وحرصنا الشديد على توثيقها وإحكامها

---

* لم يتول السادات رئاسة المجلس كما أوضحنا (الهلال).

قبل الاستقلال، وبعد الاستقلال قائلا: إن الشعب المغربى الأبى، الذى قاسى من مرارة الاستعمار أهوالا، والذى حورب فى عروبته بمختلف الوسائل وأشدها، فعرف كيف يحافظ على هذه العروبة، متفانيا فى الذود عنها،يغتنم هذه الفرصة ليؤكد لاخوانه فى هذا الجمع العظيم من جديد، أنه سيبقى دائما معتزا بعروبته، ضنينا بها، مناضلا عنها فى هذا الجناح الأيسر من بلاد العروبة، وإن هذه الذكرى التى تقام اليوم لشاعر خالد، والتى يشارك فيها ممثلون عن مختلف البلاد العربية، لدليل قاطع على أن المغرب سائر حذوالنعل بالنعل مع إخوانه لتحقيق الوحدة العربية المنشودة، واسترجاع أمجادها، وبناء مستقبلها، على أسس متينة، تضمن لها البقاء والنماء والعطاء. ثم تحدث عن شاعر النيل حافظ إبراهيم، وأنه لم يكن شاعر مصر فحسب، ولكنه كان شاعر بلاد العروبة بأجمعها، وإن تأثيره فى إيقاظ الوعى الوطنى فى النفوس، كان يحطم الأشواك والعراقيل، ويستنهض الهمم ليقوم العرب بدورهم فى الحياة، ويحطموا ما يبيته لهم الاستعمار من مكائد، ويقوموا مثل ما قامت الشعوب الناهضة، كاليابان لبناء مستقبلهم على أسس متينة، ترفع صرح العلوم، وتسير مثل ما سار الأجداد.

رحلاتي الحجازية

شعيب حليفي في نصين رحليين عن القاهرة

١ – زمن القاهرة (نوفمبر ٢٠٠٩) العودة فجرا

في اليوم الأخير لي بمصر ،غادرنا فندق بيراميزا – الدقي في الساعة الرابعة زوالا من يوم الخميس خامس نوفمبر، في اتجاه مطار القاهرة الدولي بعد انتهاء رحلتنا التي دامت ثمانية أيام ، مؤملين الوصول إلى الدار البيضاء في الساعة الحادية عشر ليلا .لكن التأخيرات المفاجئة للرحلة، بأعطاب في الطائرة الأولى وكذلك في الثانية التي نزلنا منها بعد ركوبنا بحوالي ساعة ،أخّرت وصولنا بحيث لم ننزل بمطار محمد الخامس إلا في فجر يوم الجمعة .

بقيتُ في البيت طيلة ذاك اليوم مستريحا من الوعكة الصحية التي ألمت بي في اليومين الأخيرين بالقاهرة .غير أني توجهتُ غداة السبت ،رفقة زوجتي وأبنائي، إلى مدينة سطات، وهنالك قضيتُ النهار بجوار والديَّ الفاضلين ، ولم نعد إلى الدار البيضاء إلا في ساعة متأخرة.

بُعيد الفجر بقليل، من يوم الأحد، لبستُ جلبابي الصوفي الأشخم، هابطا في صمت غريبٍ إلى مكتبي .جلستُ إلى مصيري التاريخي ، مثلما كانت مصائر غيري من الرّحالين إلى أرض الكنانة ، أدونُ وقائع رحلتي إلى القاهرة، خشية تلف تلك التفاصيل الدقيقة .

في الساعة الواحدة ظُهرا ، انتهيتُ من التحرير، فقمتُ وحملتُ أهل بيتي متوجهين نحو الميناء لتناول وجبة سمك طري كنتُ متشوقا إليها.

يوم السفر إلى القاهرة

استفقتُ باكرا، وفي نيتي البقاء بالبيت طوال النهار الذي يُصادف يوم الخميس تاسع وعشرين من أكتوبر: موعد سفري إلى القاهرة، قُبيل منتصف الليل، للمشاركة في المؤتمر الدولي الأول للقصة العربية المنظم من طرف المجلس الأعلى للثقافة بمصر.غير أني تذكرت ضرورة قضاء بعض الحاجيات التي أخذت مني النصف الأول من اليوم، ولم أعُد إلى البيت إلا في الثانية زوالا.تناولت غدائي وهممتُ بتجهيز حقيبة سفري وكل الوثائق الضرورية، وفي نيتي، مرة أخرى، قضاء ما تبقى من الوقت بالبيت .

يرنُّ الهاتف ، فيكلمني أحد أصدقائي من مدينة برشيد مفزوعا، يُخبرني بنقل والده الحاج عبد القادر إلى إحدى مصحات القلب بالدار البيضاء ،في سيارة إسعاف، بعد إصابته بنوبة قلبية مفاجئة .

لم يطلب مني شيئا، ولكنه أخبرني فقط وانقطعت المكالمة . ارتديتُ من جديد ملابسي، وفي المصحة بقيتُ معهم ،خلال كل الفحوصات الأولية والإسعافات الضرورية لوالده الذي تجاوز مرحلة الخطر، في انتظار تدخل جراحي في صباح يوم الجمعة أو السبت كما أخبرنا البروفيسور المُعالج .

ودعتُ صديقي بعدما أخبرته بقرب موعد سفري ،لأعودَ إلى البيت .هناك، وجدتُ زوجتي وقد استكملت تهيئة الحقيبة وباقي أغراض السفر، فتناولتُ ، بسرعة ،بعض الأكل ..ثم توجهتُ نحو مطار محمد الخامس، وقد ناب علاء- وأنا أغادرهم- عن أخته في تقييد ورقة بها أسماء بعض اللعب، دسها وسط جواز سفري بعناية، وهو يوصيني ويتمنى لي سفرا ميمونا. أما زينب، فكانت خرساء تنظر إليَّ بعينين حزينتين امتلأتا بالدمع ، فيما الصغرى ،مريم، شرعت تلح علي بمرافقتها لي وهي لا تعرف ،بالتحديد، وجهتي .



ركبتُ الطائرة وحيدا ، لكونى سافرت بيوم واحد قبل باقى الوفد المغربى المتكون من تسعة أدباء(١)، لحضور بدء أشغال العمل ضمن لجنة تحكيم جائزة القصة .وخلال أزيد من خمس ساعات، عرجنا فى ظلام ساكن ،من الدار البيضاء إلى مطار القاهرة ، وقد وصلته فى السادسة صباحا بالتوقيت المحلى الذى يزيد عن توقيتنا بساعتين .

فى الطائرة ،أسندتُ رأسى إلى الوراء. أغمضتُ عينى أستعيد أنفاسى، بل أنتشلها... فاسترخيتُ شاعرا بحزن يُخيِّمُ على صدرى، مثل غيوم شاردة وثقيلة ،وذاكرتى تستعيد ما وقع فى مثل هذا اليوم من سنة خمس وستين وتسعمائة وألف بباريس، حينما اختطفت أجهزة المخابرات المغربية، بتعاون وتواطؤ مع أجهزة خارجية أخرى، المهدى بنبركة .كان عمرى آنذاك عشرة أشهر، وربما فى ذلك اليوم، وفى تلك الساعة التى رموا فيها أياديهم القذرة على سى المهدى، كنتُ أرضع الحليب من ثدى أمى.

استفقتُ على جلبة تقديم العشاء، فاعتذرتُ عنه ثم خلدتُ للنوم وصورة المهدى بجلبابه الصوفى لا تفارق وجدانى.

عدتُ فاستفقتُ والطائرة ما تزال سابحة في ظلام مُطبق، و قد بقي على هبوطها أقل من ساعة. شعرتُ بتحسن في مزاجي. فتململتُ وأخرجتُ دفترا صغيرا وما تبقى من قلم رصاص ، وليس في ذهني سوى تلك الغيوم المتحررة.

في كل حياة .. شيء يستحق الانتباه

وأنا أتهيأ للسفر إلى القاهرة ، تهاجمني نفس الأحاسيس التي أحسستُ بها خلال سفرتي الأولى ذات ديسمبر(٢). هذه المرة تضاعفتْ وانصهرتْ ..فقد ذهبتُ أول مرة وأصدقائي، هناك، لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة ..أما اليوم، فهُمْ بعدد أصدقائي، هنا، بالمغرب .

منذ الرحلة الأولى إلى القاهرة، ازددتُ طمعا فيها ..لأن أثرا شعريا عميقا كان واضحا في كل طبقات ملامحها المهيبة. حينما نظرتُ إليها رأيتُ كل المُراجعات التي راهنتُ عليها.. هل أرى في هذه المرآة نفسي .. أم النفس الكلية التي لا تموت؟ .

القاهرة، وقد استعادت دهشتي المفتقدة في غمرة المجرى المزدوج والمتعدد لحياتنا "هنا".هل كل ما قرأتُ منذ ابن خلدون إلى الآن يقف اليوم في مجرى الاختبار؟

لماذا أحسستُ بنهر النيل جزءًا من دمنا الجماعى الذى سَاحَ من الأجساد المطهرة، منذ مارى جرجس إلى المهدى بن بركة ؟.(لا.. بل ساح من الأرواح المخلدة لأحلام الشهداء من الأموات والأحياء ...).

القاهريون فى بحث أسطورى عن معنى نسبية الوجود ومطلقية الخلود .وثمة الأثر الشعرى للحياة التى رتقت نسائجها من صرخة الحسين للانفصال الأليم بين الرأس والجسد والابتهالات المذوتة للسيدة زينب ..والأحلام المفتقدة فى اندفاع كلى بين حدَّىْ الموت والحياة لشهيد الخلود.

لن أشك لحظة ، بعد الآن، أن الدهشة نفسها ستفارقني، لأننى شربتُ منها احتياطى ما تبقى من عمرى . بين القصرين أو بين الحلمين، تنساب اختبارات البديهة للذاكرة وللملاحم كلها، فلا استثناء فى القاهرة غير الموت..لأن كل شيء فيها بوجهين: مقدس ومدنس ، طهرانى وأزلى .

توهمتُ أن يســـألنى رجل فى الأربعين ونحن هناك فى النادي اليونانى أو داخل مسجد الحسين أو فى قبو مظلم لامتناهى أو فى خان شقاوة بالدرب الخلفى يسألنى بلغة صافية أقرب إلى البوح ..عن جمال عبد الناصر والمهدى

والأموى وبويا والشيخ الهبطى وجدنا المقدس سيدى على الشاوي.ولمّا لم أجبه أعتقدَ أننى حزين لأجلهم..حزين حينما أحسُّ بحزنهم على حالنا.

زمن جميل ..يهرول منا

وصلتُ إلى فندق بيراميزا الموجود فى شارع متفرع من شارع الجنرال دوغول بالدقى . وبعد يومين من الاجتماعات التهييئية ضمن لجنة التحكيم، انطلقت أشغال المؤتمر فى اليوم الثالث، والذى سيدوم أربعة أيام ، بحضور أزيد من مائتين وخمسين مشاركا من ستة عشر بلدا، بالإضافة إلى مصر،فى أيام حافلة بالإنصات والمناقشة تصل إلى حد الإنهاك. ولم نكن نستعيد حيويتنا، إلا بالانفلات ليلا فى جولات بالقاهرة، أو بالجلوس إلى أصدقائنا القدامى والجدد بالمقهى .

وقد فوجئتُ فى اليوم الأول، برسالة لدى استقبالات الفندق من طرف صديقى المصرى، أحمد سالم البابى، الذى كنتُ التقيته وتعرفتُ عليه خلال آخر رحلة لى بالقاهرة، قبل سنة ونصف .

هاتفتُه، على الرقم الذى تركهُ لي، ثم التقينا بمقهى خان شقاوة فى شارع هارون ،حارة الطيب سابقا ،وهى على بعد

ثلاث دقائق من فندق بيراميزا الذى أقيم فيه .مقهى ذات فضاء أنيق ، بل خان له ملامح عصر المماليك .

عبَّرتُ له عن دهشتى واعتزازى للقائه، فخُضنا فى قضايا عامة ، وتحدث عن طبيعة عمله .فهو يشتغل بالتجارة مع والده وإخوته ،يدير عددا من المحلات فى النجارة العصرية بالإضافة إلى الاستيراد والتصدير.وفجأة، يشرع فى الضحك وهو يخبرنى بأن الكثير مما أسرَّ به لى فى السنة الماضية لم يكن سوى تلفيقا مُحْكما. وقال لى إنه خريج آداب عين شمس وليس شاعرا، كما أفهمنى فى السابق، أو كما حدَّثنى بخصوصه، حينما قال لى بأنه عاش لفترة طويلة فى الخليج . يعمل لدى إحدى الأسر الحاكمة ، يكتب لهم الشعر والنكت والخطب والتهانى والتعازى.

بقيتُ معه لساعة ونصف، ثم انصرفتُ إلى غرفتى، بالطابق الحادى عشر، رقم ١١٠٨، غير مُبال بحكايات أحمد سالم التى تحولت من العجيب إلى الواقع الضائع .

في اليوم التالى، التحقتُ به متأخرا، بساعة. في الخان المذكور، فوجدته جالسا في ركن مظلم إلا من نور خافت ، يدخن الشيشة وينظر إلي صفحات جرائد المعارضة المصرية.

لم يكلمني ولكنه اكتفى برفع بصره نحوي مشيرا إليّ بالجلوس. ثم التفت إلى "زكي" نادل المقهى، ليعود إلى جريدته، دون أن يبدو عليه أنه يقرأ شيئا.

قلتُ له : الإدمان على الجرائد بالنظر أو اللمس يورث الاكتئاب، أنصحك يا صديقي باختيار المقالات وكُتّابها حتى لا تكون مثل حاطب ليل.

ومثل شخص انتهى من مضغ شيء صلب ومُرّ، مُحركا لسانه داخل فمه وهو يرد عليَّ :

– لا تُبالِ يا مغربي يا "بو ألب عسلْ" !، أنا منشغل عنك أنتَ "بسْ"، فرأسك ستنفجر منذ مئات السنوات أو آلافها لست أدري ولا أريد وأنتم تتكلمون وتحفرون عن البيضة ومن باضها. إنكم يا سيدي الفاضل، لا تنجحون إلا في خلق التكرار وعلوم تحويل الحقائق إلى أباطيل.

كان أحمد سالم يتكلم بلهجة مصرية غاضبة، فسعيتُ أن يستمر في نقده التاريخي لكنه تراجع، وقد خمّنتُ أن كلامه جاء إثر تأخري عليه.

التفتَ نحو النادل مخاطبا إياه بصوت عال :

– يا زكي زِفت، فين الست ليلى ؟

عاد يضحك، كمن كان يمثل دورا سريعا فى مشهد درامى ، وفهمتُ أنه يقصد ليلى مراد، حينما توجه زكى الزفت ! ووضع شريطها، فسمعتها تقول من ضمن ما تقول :

" يا مْحيَّرنى / أملي ويأسى / طمِّنْ قلبى / إن مارحمتنشْ / عِزة نفسى / ارحمْ حُبي.

●●●

حكاية لتسلية المُسافر

هناك أمكنة لا يمكن أن تكون فيها مُحايدا .تلك التى يولد فيها الإنسان بعلامة. والقاهرة مثل الشاوية، أرض مقدسة .. كل من يهبط إليهما يصبح روائيا أو نبيّا (فى النسخة الأولى كتبتُ: "أو رئيس جمهورية"). لذلك راودتنى نفسى ، قُبيل سفرى ببضعة أيام وخلال الأيام الثمانية التى قضيتها بالقاهرة ، بكتابة رواية قصيرة ..نص خيالى جدا، بنسبة صفر فى الألف من رائحة الواقع.ربما تعويضا عن الكثافة الواقعية التى تغمرنى فى تلك اللحظات الفاصلة بين كازابلانكا والقاهرة. وإثر ذلك اتصلتُ بناشرين من أصدقائى، وهما شهود على أية حال ، للتعاقد على الرواية . اخترتُ لها بلدا صغيرا فى جزيرة معزولة فوق جبل عال ، بعيدة جدا جدا عن المغرب ومصر .

هكذا صرتُ أُحب المقارنة التى تمدنى بقوة خارقة. فالشاوية (وهى بلدى الأول والأخير، وكم تمنيتُ أن أكون حاكما مطلقا عليها، أُورِّثُ عرشى من بعدى لسلالتى الطهرانية، من الذكور والإناث)، لها غروب خُرافى شبيه بالدهشة الأزلية الرابضة فى أرواحنا. أما القاهرة فلها فجر خُرافى أيضا، لم أرَ أو أشاهد أو أبصر نظيرا له أبدا فى حياتى، فجْرٌ روحانى، كلما قام فيه وارتفع صوتُ الآذان الرخيم ، إلا واستحضرُ اللحظة بكل الأزمنة السابقة وطبقاتها الذهبية العتيقة، المخلوطة بأرواح الأجداد الذين راحوا ...

هكذا أحبُ المقارنة ، وأنا فى القاهرة . لحظة فجر يوم الأحد فاتح نوفمبر، أنهض لأجلس إلى مكتب صغير بغرفتى فى الطابق الحادى عشر ببيراميزا الدقى ، أمام أوراق بيضاء، لا أعرف أى الصيغ أختار ..هل أكتبُ الرواية مباشرة أم أُخطط لها وهى تلحُّ عليَّ إلحاحا ؟

قررتُ أن تكون من جزءَين : الأول يجرى قبل ثلاثة عقود وما يزيد ربما ، بينما الجزء الثانى فى الحاضر الذى نحياه .

النيل يجرى فوق دهشتنا

تأسست القاهرة فى القرن العاشر الميلادى على يد القائد

جوهر الصقلى، خلال عهد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله . مدينة مفتوحة على كلِ الثقافات وأبواب الحضارات الفرعونية والرومانية والإسلامية، ضمت إليها، بابليون والفسطاط والعسكر والقطائع، ثم توسّعت بين الأهرامات وجبل المقطم ومجرى النيل، موقع التقاء الدلتا بالصعيد فى عُقدة الوادى.

إنها القاهرة الممتدة على أرض مصر الضاربة فى ما يزيد عن خمسين قرنا من الحضارات، أصبحت مركزا أساسيا منذ ثمانية وتسعين ميلادية إبان بناء حصن بابليون، والذى توسع ببناء الفسطاط مع الفتح الإسلامى . لحظة فارقة من تاريخ الأرض والإنسان والروح، بعدها تعاقب الولاة، أما الحياة فوق المجرى الخالد فهى تكتبُ أسرارها وأقدارها ، ثم يأتى صالح بن على فى القرن الثامن الميلادي، ويُنشئ مدينة العسكر، تلتها القطائع على يد احمد بن طولون .

وإلى صلاح الدين الأيوبى يعود الفضل فى جعل القاهرة خلال القرن الثانى عشر الميلادي، فضاء مفتوحا للعامة بعدما كانت مقتصرة على الخاصة والخلفاء، كما أنشأ قلعة الجبل وبنى قناطر الجيزة.

تطورات فى الظاهر والباطن، والنهر يجرى منذ هبط الأنبياء والشهداء وكل الرحالة والعابرين إلى لحظة الفتح ،ثم بدايات جديدة مع الطولونيين والفاطميين، تلاهم الأيوبيون والمماليك.

عصر آخر سيعرف تحولا فى القاهرة مع العثمانيين منذ ١٥١٧ ،تعاقب خلاله مائة وسبعون من السلاطين ،عاشوا كما عاشوا، بأسرارهم وخطاياهم، ، والشعب المصرى يروى حكاياتهم ويعيد رسم خرائط أرواحهم وأسمائهم، فهناك أحمد باشا الخائن، وقاسم الجميل، وسليمان الخادم، ومحمود المقتول.

أما الحملة الفرنسية، ومنذ ١٧٩٨ ،فقد تركت بصماتها باعتبارها مرجعا للتحول مع نابليون بونابرت وكليبر وعبد الله جاك ،فاسحين المجال لمرحلة الولاة العثمانيين الأربعة، آخرهم محمد على باشا. ومنذ ذلك التاريخ فى العشرية الأولى من القرن التاسع عشر إلى سنة ١٩٥٢ ،ستعرف مصر الحديثة أحد عشر حاكما تعددت أسماؤهم بين الباشا والخديوى والسلطان والملك، لتأتى الثورة الثانية بحلم بداية عهد جديد، تعيش فيه أرض الكنانة أحلامها المؤجلة منذ تولى جمال عبدالناصر إلى غاية سفرتى الأولى فى صبيحة يوم رابع عشر ديسمبر١٩٩٦ .

حكاية لتسلية المُسافر

(فجر يوم الأحد فاتح نوفمبر): فى تلك الجزيرة التى هى عبارة عن جبل ينتمى إليه كل السكان ، فى قمته الشامخة يوجد بيت الحاكم ، محاطا بعدد من قصور معاونيه من المدنيين والعسكريين ، أما ما تبقى من الجزيرة فهو السفح، تسكنه عامة الناس الأصليين، بالإضافة إلى المهاجرين الفارين من مناطق بعيدة إثر سنوات الجفاف .

من هذا المكان، توضّحتْ لى - أنا الراوى - ملامح الجزء الأول. فالسفح كله عبارة عن حى شعبى كبير ، به فندق أو خان، تعود ملامحه إلى قرون خلت. بُنِيَ على شكل دائرى ذى وسعة غير مسقوفة فى الوسط، يأوى العربات والحيوانات؛ و به بئر للشرب، بجواره أربعة بيوت تسكنها العائلات التالية :

السبايسى ،وهو حمَّال له عربة بحصان هرم ، معه زوجته التى "تسرح" النهار فى بيع متعلقات نسائية خفيفة . لهما أربعة ذكور وثلاث بنات .

- علال السمسار، أب لابن وحيد،اسمه عصمان الجبلاوى، يتاجر فى كل شيء ومع كل الناس .

- الفقيه الطيب، وهو فقيه حافظ لكتاب الله ومعلم للأطفال، رجل ورع يحيا فى طمأنينة .

- الشيخ حمان ، وهو مطرب شعبى ، له دزينة من الأولاد والبنات .

عاشوا فى "حب وهناء"بشكل جماعي، يحيون مثل عائلة واحدة ، يأتمرون بصوت علال السمسار الذى مدَّ الخان براديو ضخم يجلب لهم السعادة والنشاط ، وعبرهُ يستمعون إلى أفراح واحتفالات حاكم الجبل .

بعد سرود دائرية ،يختتم هذا الجزء بحدث جديد تمثل فى نظم حمان لقصيدة مدحية فى عيد تولية الحاكم، قالها منشدا إياها بآلته الوترية العجيبة (وقد قيلت القصيدة بلغة أهل الجزيرة، ولأننى بالقاهرة فقد ترجمها لى بعض الزجَّالين الأصدقاء، إلى اللهجة المصرية على أن أعمل لاحقا على ترجمتها إلى لهجة كل قطر عربى شقيق) :

- نؤيد سيادتك لفترة جديدة /نكمل خلالها المسيرة السعيدة / و بالمرة فيها نبيع الحديدة/ مفيش حاجة ثانية نبيعها خلاص.

- نؤيد سيادتك لأجل المزيد/ من اللى تحقق بفضلك أكيد / بقينا خلاص ع الحميد المجيد / و ربك لوحده ف ايده الخلاص.

- نبايع سيادته ولا حد غيره /كفايا علينا نبرطع فى خيره / و نوم شعب "الجزيرة" العظيمة و شخيره / يقول للحرامى ما تسرق كمان .

- نبايع سيادته وابنه وحفيده /مفيش زى فكره قديمه وجديده / خرابك يا مالطة حيحصل بايده/ ومين فيكى يعنى بيسمع آذان.

- نبوس ايد سيادتك و رجلك كمان / تخليك معانا يا ريس عشان / وجودك ضرورة فرضها الزمان / ومن غير وجودك حقيقى نضيع.

- دى "الجزيرة" بتاعتك و احنا ضيوفك / كفايا علينا يا ريس نشوفك / وعاذرين سيادتك و فاهمين ظروفك / عليك بس تأمر واحنا نطيع.

- فى جزمة سيادتك كلابك يبوسوا / وفوق الغلابة بجزمهم يدوسوا / وشعبك ليلاتى يا ريس غموسه / مذلة ومهانة و حوجة ومر.

- لكن يعنى ما دمنا شعب انتساب / ودايما وأبدا ف حالة غياب / متعملش لينا يا ريس حساب / دى عزبة سيادتك و فيها انت حر.

- ودستور مدستورش مش فارقة خالص / كلام فاضى كله يا فندم بناقص / كفايا علينا الفساد اللى ماصص / عرقنا و معشش و ضارب جذوره .

وايه يعنى تهرى جتتنا البلاوى / يوماتى كوارث فضايح رشاوي / كفايا علينا القعاد فى القهاوى / بنستنى لما الوريث ييجى دوره.(٣)

وقد نال الشيخ حمان ، بعد قصيدته هذه، وسام الرضا من درجة ضابط، دون أن يتبين له أبدا ، هل هو ضابط عسكرى أم ضابط مدني !؟.

الكرسى

منذ وصولى القاهرة، شرعتُ أسأل عن المسرحيات المعروضة فى تلك الفترة ، فعلمتُ من أصدقائى ومن الصحافة أن عادل إمام يعرض بمسرح الزعيم فى الهرم مسرحيته (بودى جارد) للسنة الحادية عشرة،كما سمعتُ بمسرحية كانت قريبة منا ، فى شارع عماد الدين على مسرح

الريحانى بعنوان «مُرسى عاوز كرسى» ،بطولة أحمد بدير وشعبان عبد الرحيم، ذات مشاهد غنائية بتصوٌر «سياسى» كما قيل.وقد عزمتُ على مشاهدتها وصرتُ أؤخرها إلى غاية اليوم الأخير ، رحتُ رفقة مُرافقى ، فقيل لنا بأنه يوم عطلة ولن تستأنف إلا يوم الغد ، يوم سفرنا للأسف، فضاعت منا فرصة مشاهدة كيف يمكن للإنسان أن يحيا على أمل الحصول على كرسى يرى من خلاله العالم والآخرين .



في خان شقاوة ، كنا ثلاثة نتحدث ونحتسى الشاى وكل المشروبات الساخنة واللذيذة ، وكان أحمد سالم يعبُّ من شيشة المعسل عبّا ، منتشيا بنشر كلماته ونكته بيننا ..ومن حين لآخر، يتكلم فى الهاتف لتجديد أو إلغاء مواعيده، كما كان يتوقف لبرهة يسيرة ينقطع فيها عنا... كما لو كان يهبط إلى قعر بئر لا قرار له، متفقدا أنفاسه المتشابكة، قبل أن يعود إلينا سالما معافى.

قلت لأحمد سالم البابى:

- أتعرف أيها الباب العالى المُبجّل .. ان الشاوية، أرضى المقدسة ،التى عاشت بدون أسوار، ولم يطأها نبى أو رسول،

يوجد بها مكان نسميه القاهرة. ومن أرض الشاوية تفرَّق الأولياء فى كل البلاد الإسلامية ومنها أرض الكنانة.

قال لي، وقد التفتَ ينظر بعكس اتجاهى إلى الفراغ ، يحك عنقه بسبابته:

- القاهرة هى المدينة الإسلامية الوحيدة التى بُنيتْ لها ثلاثة أسوار على فترات تاريخية متعاقبة: سور جوهر، سور أمير الجيوش بدر الجمالى فى عهد الخليفة المستنصر، ثم سور بهاء الدين قراقوش فى سلطنة الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى الذى بناه ليضم القاهرة والقطائع والعسكر والفسطاط جميعاً .

كانت للقاهرة ثمانية أبواب ، فى كل جهة من جهاتها الأربع بابان . باب زويلة وباب الفرج فى الجنوب ، وفى الجهة البحرية: باب النصر وباب الفتوح ، وفى الجهة الشرقية: باب القراطين (المحروق) وباب البرقية ، أما فى الجهة الغربية وهى المطلة على الخليج فكان فيها باب سعادة وباب القنطرة . وقد زالت معظم هذه الأبواب ولم يتبق منها سوى ثلاثة حتى الآن، معروفة باسم باب زويلة، وباب الفتوح ،وباب النصر.

نشيد ثورى فى شارع الهرم

تأخرت سهرتنا طويلا مع أحمد سالم قبل أن نتوجه إلى شارع الهرم للعشاء، ومواصلة النقاش والبحث عن الحقائق الضائعة التى لم يستطع القبض عليها العلماء ولا الخبراء أو السياسيون المنهمكون فى البحث عن فتوى شرعية لمنع التوريث بين مواطن مسلم وابنه المسلم أيضا فى ما تَملّكه شرعا بالاستمرار والأقدمية !!.

وصلنا الشارع المذكور، فشعرتُ،ونحن ننزل من السيارة، بإحساس قريب من تلك الأحاسيس التى راودت أرواح الأنبياء والفاتحين والأولياء الذين مَرّوا من هنا، ونفوسهم توّاقة للوصول إلى أعلى مراتب الطهرانية.

الأضواء فى كل مكان من الشارع الطويل ، وشيء من الحق يرْقُبنا من عل، من فوق الأهرامات ، هناك. استمر سالم يكلمنى وأنا غائب بعدما عادت إليَّ دهشاتى المفقودة ؛ وحينما توقفنا أمام باب ملهى الأندلس ، ترددتُ بعدما كنتُ تركتُ لسالم مسؤولية القيادة، فبدا مفاوضا ونحن على العتبة الأولى يبحثُ لنا عن ليلة فنية محترمة نُشنّفُ بها أسماعنا بما يُبهج قلوبنا الحائرة .

وأنا بباب الملهى ،فى لحظة تاريخية نادرة نُدشنُ بها عهدا جديدا فى رحلتنا تلك ،لم أعرف كيف هبطت عليَّ قصيدة كنتُ أحفظها لشاعر مغربى (٤) ، فقلتُ بصوت مسموع :

يا قلبُ مَنْ تهوى غـدا / والليل قـائم

يا قلب حـاذر أن تُطوقك الجـمـاجم

يا صاحبى/ سترى يقينكَ نازفا فوق الجباه

سترى جبينك متربا/ حتما تراه/ واصل معى

لازال فى القلب شئ يستحق الانتباه

وكان الفتح بهذه التميمة فدخلنا جمهوريتنا مُتيَّمين.

دخلنا... وبعد ست ساعات خرجنا .دخلت ُمترددا حائرا فخرجتُ مقتنعا..دخلتُ وأنا فى جُبة الفقيه الورع، زاهدا مالكيا متمسكا بما يُبقينى حيا أُرزق، فخرج منى الشافعى والحنفى والحنبلى والهرمي، وقد صرتُ ثوريا حاسما أستطيع تقديم دمائى نشيدا يتقطرلإرواء عطش الفقراء ويبوسة أحلامهم القديمة دائما ..وآذان الفجر يدعو الأمة النائمة والصاحية إلى الصلاة. شعرتُ بخشوع غريب ورغبة للتوجه نحو سيدنا الحسين ..لكن سالم لم يكلمني. فركبنا السيارة عائدين إلى الفندق، وفى آخر الشارع، رأى اثنين من

العسكر، فتوقف دون أن يطلبا منه ذلك ، ودسّ في يد واحد منهما ورقة نقدية من فئة مائة جنيه من غير أن يكلمهما ..ثم واصلنا سيرنا وأنا ألح فى الذهاب إلى الحسين بينما هو صامتٌ لا يلتفتُ إليَّ.

ماذا جرى فى تلك الساعات الأندلسية ؟

بادرتُ ، وبدون شعور مسبق،بتحقيق ثلاثة أشياء، اعتبرتُها استراتيجية لإنجاز دخول شرعى إلى هذا المكان ، وذلك قبل أن أجلس :

أولا : الانقلاب على السيد أحمد سالم البابى بجعله واحدا منا ، يسودُ ولا يَحكم وإنما الأمر شورى بيننا ونحن بالداخل .وبعد مرور الساعة الأولى على هذه الحال ، أصبح يسود ولا يحكم وأسميناه عمر ولقبه "ما يُحكُمش ياعُمر"(وهى جملة طريفة سمعتُ إحدى العالمات بالملهى تقولها لعالم عربى بجوارها ،فاستثمرتُها فى بناء وضع مهزوز، لم نعثر له ، بعدُ، على نظرية متماسكة)!. وأصبح عُمَرُنا المعاصر ينظر للثابت والمتغير وهو جالس على الكرسي، نُعلق عليه ما لا نرغب فيه .

ثانيا : أنا من يختار الكرسى الذى يُلائمنى للجلوس ويؤهلنى للاستمتاع بوقتى كاملا .

ثالثا : قطع كل الشرائط والجسور التى يمكن أن تربطنا، خلال تلك اللحظات، بالماضى والذى يبدأ منذ دخول عمر إلى غاية وقوفنا على عتبة ملهى الأندلس.

عاد سالم يحدثنا عن التاريخ وعدد من الجبانات وملوك الفراعنة وكراسيهم الحجرية، فقاطعته فى اللحظة التى شرعتْ إحدى أهم عالمات الفن بشارع الهرم، وبهذا الملهى تحديدا ،فى أداء وصلتها الوحشيّة والسّاخنة، وقد قام الشاعر من بين ركام أفكارى وصاح فى العالمة :

أنا لَنْ أُقبِّلَ اليدَ التى مُدَّت إلىَّ فى الهاويه
أنا لنْ ألبسَ أبدا تلك الشاشيه
أنا الذى جئتكم من بلاد الشاويه

توقفتُ عن الكلام، لأننى واع بتحريف شعر جميل لشاعر رقيق فى زمن مضى ،ثم التفتُّ نحو سالم طالبا منه أن يحكى لى عن الأحياء الواقعيين الذين نحن بين ظهرانيهم .آنذاك وبدون رابط (ولعل ذلك من فرط تدخينه لتلك الشيشة ،تحوّل كائنا عجائبيا بينما بقيتُ قابضا بيد من حديد على واقعيتى المفرطة، أما مُرافقى فكان شاهدا من العصر إلى الفجر)،

تحول أحمد سالم يغنى منتشيا بالواقعية التى طلبتها منه، أغنية (الناس الرايقة) لأحمد عدوية ورامى عياش :

(وبَحِبْ الناس الرَّايْقَه .. اللِّى بتضحكْ على طُولْ
أَمَّا العَالم المدَّايْقَه .. أنا لأ مَليشْ فى دولْ
ومليش فى الدمع لا لا .. ولا فى الناس الشَيَّانه
كل اللى فـ قلبُه حاجه .. أول بـ أول بيقولْ).

قال لى سالم وهو منتش بالأغنية وكلماتها :

-- هذه الأغنية يا دكتور، تختزل كل التحولات الرهيبة القادمة، وتقول ما لم يستطع المسؤولون العرب التعبير عنه فى كل البلدان العربية..اسمع الباقى :

(وبَحِبْ اللى مْخَلِّيهَا على الله .. اللِّى ما يَحْسَبْهاشْ
ده العمر قْصيرَّ ليهْ نِتْغَيرْ .. ولاَّ مَنْعِشْهَاشْ
بقَّى كمْ شالوا همِّى وحرقةْ دمْ .. يا عينى راحوا بَلاشْ
دآهو كده على جرح قال انا ياسلام
فى التمام رامى عياش ...).

تواصل سمرُنا العامر بنقاشاتنا الأزلية، فى عالم تقوده الحياة والرغبات ، حيث لا حاكم ولا محكوم ، لا غالب ولا مغلوب .

أبواب الحياة

واصلتُ تتبع أشغال المؤتمر والالتقاء بالأصدقاء من مصر وباقى الدول العربية المشاركة معنا، كما حرصتُ على اقتناء الكتب من المجلس الأعلى والمركز القومى للترجمة ومكتبة النهضة ودور النشر المصرية الشابة التى غيرت مشهد النشر (العين ، الدار ، ميريت ...)، كما حرصتُ خلال كل أيام وجودى على تتبع الجرائد اليومية : الدستور ، الأهرام ، الجمهورية، أخبار اليوم ، روز اليوسف، الأهالى (أسبوعية)...

وأزعم أن الوطن العربى وغيره من بلدان العالم ، لا تعرف مصر إلا عن طريق الآداب والفنون والتاريخ ، فما حققه جمال عبد الناصر على مستوى الوجدان الشعبى العربى ، حققته كتابات الأدباء والفنانين فى صوغ وجدان القُراء والمثقفين العرب . هل يمكن لأحد أن ينسى أمل دنقل أو يحيى الطاهر عبد الله أو نجيب سرور والمئات من الشعراء والقصاصين والروائيين والأدباء فى كل الفنون .

شخصيا ،لم أعرف مصر مثل غيرى من قبل ومن بعد إلا من خلال روايات نجيب محفوظ وجمال الغيطانى ويوسف

القعيد وبهاء طاهر وصنع الله إبراهيم وخيرى شلبى وادوار الخرّاط، وغيرهم من نفس جيلهم أو من الأجيال الجديدة . كما لم يكن من الممكن أن يتحقق الالتحام الثقافى المصرى العربى والعالمى ، فى شكل غير مسبوق ومستمر ، منذ تسعينيات القرن الماضى ،إلا بفضل جابر عصفور الذى جعل من أسئلة الثقافة جزءًا من أسئلة الحاضر والمشهد العام .

هذه هى مصر التى فى خواطرنا ، من كتابات وأصدقاء وصور: خريطة من الفنون، بمتاحف غنية ومتنوعة: (المصرى، القبطى، الفن الإسلامى، قصر الجوهرة، قصر المنيل، متحف مختار ومحمد محمود خليل) ثم المتاحف الطبيعية المشكلة للمعالم التاريخية، الفرعونية من الأهرامات وغيرها .

من فوق جبل المقطم، حيث الشعور مضاعف آلاف المرات.أحدقُ النظر لأرى كل شيء، أرض القاهرة منذ حوالى ٤٢٢٥ قبل ميلاد السيد المسيح، فى المكان الذى سُمى اليوم عين شمس... معالم حية تطوف فى الخاطر دون أن تبْرَد.هنا وهناك .. فى جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة، وجامع ابن طولون، وجامع محمد على فى قلعة الجبل ، وجامع

الناصر محمد بن قلاوون فى الرحبة الحمراء بوسط القلعة، إلى جانب الأزهر الشريف (الفاطمي) ومسجد الحسين، والرفاعى والسلطان حسن. ثم الكنائس القبطية: الكنيسة المعلقة بمصر القديمة، وكنيسة القديسة باربارا وكنيسة أبى سرجة، ثم قيصرية الريحان ومارى جرجس والقديس مارقريورس.

حكاية لتسلية المُسافر

(فجر يوم الثلاثاء ،ثالث نوفمبر):فى هذا الجزء الثانى من الرواية، وبعد ثلاثة عقود وما يزيد، يتوارى الآباء، بعدما صاروا صورا بالأبيض والأسود ، وبقايا أناس .لكن الأبناء فى الواجهة يخوضون تجاربهم المدهشة .

لذلك، خصصتُ هذا الجزء، لتتبع ثلاث شخصيات من الجيل الجديد ،فى ثلاثة فصول:

الفصل الأول، حول شخصية عصمان الجبلاوى نجل علال السمسار، وقد أصبح رمزا من رموز السلطة بثروته الكبيرة جدا، يُتاجر فى الأسلحة والعقارات ، وهو مالك لعدد من القصور فى الجبل والبحر،وعدد من البنوك والصحف وأسهم مالية فى شركات كبرى .

الفصل الثانى، وخصصته لسيرة شخصية همَّام، أصغر أبناء السبايسى. والذى احترف التمثيل بمسرحين ابتناهما لنفسه، واحد فى سفح الجبل يقدم فيه تمثيليات هزلية لعامة الناس، والثانى فى قمة الجبل يُضحك فيه الحاكم وبقية علِيّة القوم . وله اليوم فرقة مسرحية اكتسحت كل الجزيرة .

الفصل الثالث، يروى سيرة ولاء الطيب ، واحد من أبناء الفقيه الطيب .وقد كان ولاء عضوا نشيطا ضمن تنظيم ثورى سرى يضم عددا من أبناء سفح الجبل ، هدفهم إسقاط الحاكم وهدِّ القصور وإنشاء جمهورية على غرار جمهوريات أمريكا اللاتينية .وكان شاعرا يقول قصائد حماسية قوية يحفظها كل أعضاء التنظيم السرى .

اعتقلهم الحاكم ، ولسنوات مديدة ظلوا قابعين فى السجون، ولما خرج ولاء لم يلبث أن أصبح صديقا حميما للجبل وقد أدرك أنه تجاوز مرحلة طيش الثوار الذى "أضاع رواء روحه"، إلى رصانة معقولة يُفيد فيها ويستفيد، تُعبر عن توبته الصادقة والنصوحة ، لذلك فقد انخرط فى جولة وطنية، لسنوات، يطوف بالجبل راويا ومُبشرا بالعهد الجديد وبالمنهجية الديمقراطية، مُنشدا قصائده الجديدة.

وختم الشاعر ،ولاء الطيب ،حياته بالانخراط عضوا أساسيا فى فرقة التمثيل للسيد همَّام ،يقوم بأدوار لم تصل بعد إلى البطولة المطلقة. يمثل فى مسرح السفح والقمة بدورين مختلفين ، ويكتب الحكى والحوار.. وذلك سرٌّ من أعز الأسرار وسبحان الواحد القهَّار.

اكتشاف مخابئ السرد

تواصلت أيامنا بالقاهرة ، حيث التقيتُ بعدد من الأصدقاء والزملاء للتنسيق بخصوص أعمال مشتركة، كما وقَّعتُ على عقود نشر ،والتقيتُ أيضا بمجموعة من الطلبة المغاربة الذين يتابعون دراساتهم بمصر،كما جالستُ د/هدى وصفى، ود/عماد أبوغازى، ود/ حلمى النمنم ود/نبيل حداد، ود/ محمد شاهين، والمبدع النبيل نبيل سليمان، وعزت القمحاوى ود/حسين حمودة ..فى جلسات عمل وتنسيق، ومع عدد آخر من أدباء مصر والأردن وسوريا وتونس والبحرين واليمن واليابان والسودان والجزائر...

●●●

الصباح القاهرى مُثقلٌ بما يَحمله من أحلام الليل ، متأهبٌ لأدخنة الشيشة المتخايلة بفعل شذو "المعسل" وبديهة الأفواه

المتعطشة لاعتصار اللحظة من جذريتها.. فتضيق كل المشاهدات فى التفصيل والتكثيف .

هبطنا (بل هبطتُ وحدى وخلفى دهشاتى) مصر القديمة والأدراج المؤدية إلى الخلوة التى اختبأ فيها السيد المسيح والسيدة مريم (أو من كان يُشبههما). والكنيسة المعلقة والأخرى المُشيدة بسلام أبدى يلتقى بطمأنينة السيدة زينب الراقدة فى إجلالة أمنا المخلدة، وسهو السلاطين الذين يمكن تتبع هرولاتهم الوهمية من فضاء القلعة أو البرج الناصرى .

أينما وليتَ.. يُمكن أن تجدَ الطمأنينة فى مكتبة القاهرة الكبرى ، فى المجلس وفى وكالة الغورية وكل المساجد العتيقة ومحل الكاسيت الذى ينتشى بأغانى اسمهان والمقطوعات الثورية لعبد الحليم ،بعد يومين فقط من النكسة .

حكاية لتسلية المُسافر

(الفجر الأخير لى فى القاهرة ،الخميس خامس نوفمبر):
شعرتُ بالضجر من تلك الرواية التى لا أفكر فيها إلا فجرا، فقررتُ تمزيق كل الصفحات التى كتبتُ.ثم بعد لحظة، تساءلتُ، فى حياد تام، لماذا التخلى عن أفكارى وخيالاتى ؟

عدتُ إلى فراشي .تمددتُ وتراجعت عن إجراء اتصال مبكر بمُرافقي الغارق في النوم ، فلجأتُ إلى التلفاز أتابع أخبار الجزيرة .

أغمضتُ عيني، وأنا أفكر في الأسباب التي دفعتني إلى التفكير في إعدام نص لا ناقة ولا جمل له في ما أفكر فيه .

هناك ثلاثة احتمالات كانت وراء تفكيري ذاك :

الأول : إذا كنتُ في الجزء الأول من الرواية قادرا على التحكم في الآباء الأربعة ، لأنني صُغتُ تفكيرهم منذ البداية ، فإن أبناءهم في الجزء الثاني ، وخصوصا عصمان وهمام وولاء، تمردوا على سيطرتي ، فشعرتُ بأني لم أعد روائيا وإنما أداة منفذة لِما يخططون له.. وخشيتُ على نفسي والحق يقال أيها السادة من السقوط في ما لا أرتضيه لنفسي ككاتب وإنسان .

الثاني: هُيئَ لي أن شخصيات الجزء الثاني، بدأت تأخذ ملامح شخصيات من هنا وهناك، أعرفها جيدا كما تعرفونها أنتم أيضا .

الثالث :اكتشفتُ أن الشعر الوارد على لسان الشيخ الضابط حمان، أثناء مبايعته لحاكم الجبل، هو نفسه القصيدة

الزجلية لشاعر عربى مصرى كبير، قالها فى سياق آخر . وحينما ترجمته إلى المغربية تبين لى أنه نفس شعر شاعر من كازابلانكا، فخشيت من تمثيلياته وعدلتُ عن إيراده فى نص الرحلة.

أكتبُ..لنفى التأويل

استمرّ خروجى فى المساء نحو زيارة الأماكن التى رغبتُ فى زيارتها، وفى كل مرة، أُدرك أن كل مصرى يحمل بداخله تاريخه الخاص والعام، جُرحه وفرحه ، كذلك الحجارة والأمكنة .. حتى خُيل لي، أنه بإمكانى تتبع خطوات الأنبياء وأثرهم الذى لا يمحي، والإحساس بخشوعهم فى فضاءات الكنانة الهادئة، إلا من خرير المجرى الأبدى للنيل.رأيتُ سيدنا الحسين شامخا، وسيدات التقوى والبر الغالي، زينب وسكينة وفاطمة النبوية وعائشة ونفيسة، كما اقتربتْ روحى من الصلحاء الفضلاء الإمام الشافعى وأبو الحسن الشاذلى وأحمد البدوى وأبو العباس وإبراهيم الدسوقي.

شعرتُ بمسحة حُزن تطوف بخاطرى لما لم ألتق هذه المرة ببعض أصدقائى، كما تذكرتُ أصدقاء نبلاء جمعتنى بهم

صداقة حقيقية ورحلوا عنا: خيرى عبد الجواد، يوسف أبورية وأستاذتى الفاضلة فاطمة موسى .

●●●

أنتَ تقتلني وتُحييني، كلما طاف دمي بعروقي طوفانه اليومي أجدكَ في كل المنحنيات تتوضأ، تقرأ الشعر وتكتبُ الخطب، ثم تصنعُ للأنبياء نِعالهم التى سيسافرون بها إلى منافيهم الأزلية.

إحالة :

(×)- تاريخ الرحلة : ١- ٦ نوفمبر، ٢٠٠٩ .

(١) أسماء الوفد المغربى: إدريس الخورى، أنيس الرافعى، ربيعة ريحان، شعيب حليفى، عبد الرحيم العلام، عبد اللطيف محفوظ، عبد العزيز الراشدى ، محمد عز الدين التازي، نجيب العوفى.

(٢) - زرتُ القاهرة سبع مرات فى رحلات كنتُ مدعوا خلالها لمؤتمرات ثقافية :١٤ ديسمبر ١٩٩٦، ٢٢ فبراير ١٩٩٨، ١٥ أبريل٢٠٠٠، ١٨ أكتوبر ٢٠٠٢، ٨ ديسمبر ٢٠٠٣، ٢٦ فبراير ٢٠٠٥، ١٧ فبراير ٢٠٠٨ ثم الرحلة الثامنة، هذه، فى ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٩ .

(٣) قصيدة للشاعر أحمد.فؤاد نجم .

(٤) الشاعر المغربى صلاح الوديع .

٢.على أبواب القاهرة
(مايو ٢٠١٠)

مثل طمى خلاَّق

أحبُّ أن أبدأ تدوين رحلتى هذه، بتذكر كل الرحالة الذين زاروا مصر عبر مراحل مختلفة من التاريخ، ولأسباب شتى. وقد يُسعفنى تخيل أجزاء متناثرة مما عاشوه وأحسوا به.

فى كل رحلةٍ لى ،سواء كتبتُها أو تركتُها فى وجدانى ضمن أرشيفٍ صامت، أحبُّ قراءة أشياء كثيرة عن البلد الذى أزوره، إنْ من التراث أو من تآليف حديثة ومعاصرة لعرب أو أجانب . مثلما هى قراءاتى الدائمة للرواية العربية، ومن جملتها السرود المصرية.إنها تجعلنى قريبا من المتخيل العام لأرض الكنانة ؛كما شكلت النصوص الرحلية إلى مصر أو تلك العابرة منها إلى الديار المقدسة مرجعية مهمة لى.

هذه المرة، قرأتُ فقط للصُّبيحى السَّلاوى رحلته الطريفة إلى مصر(١) ،كما قرأتُ (٢) خمس دراسات حول " مصر

قصة حضارة". وعكفتُ على قراءة كتاب "النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة "لابن تغرى بردى الأتاباكي.

كما أسَرَّ لي، رفيقُ رحلتى (٣)، أنه يحوز كتابا نادرا لأديب من غواتيمالا زار مصر فى مطلع العقود الأولى من القرن الماضى ، ودوَّن رحلة طريفة. فاقترحتُ عليه تخصيص جزء من وقته لترجمتها.

قراءاتى قُبيل الرحلة وبعدها، ركزتُ فيها على نصوص بعينها تروى عطشي، وكأنى بذلك أسعى إلى تمديد وتحويل الفترة القصيرة التى قضَّيتها بمصر إلى آلاف السنوات.



من غريب المُصادفات، أن يبدأ الأسبوع الذى سأسافر فيه بمتاعب لا حصر لها، يمكن اختصارها ،دون تفصيل فيها ، فى رفض السفارة المصرية منحى التأشيرة بدعوى أن الثلاثة أشهر، مدة الصلاحية المتبقية بجواز سفرى ،غير كافية كما تنص على ذلك القوانين، وقد جرَّبتُ إعداد جواز جديد، غير أن ترتيبات النظام المستجد للجواز البيومترى المرتبط بدار السكة فى الرباط ،يتطلب على الأقل عشرة أيام، فعاودتُ الاتصال حيث تدخَّل الصديقان وائل شلبى من المجلس

الأعلى للثقافة بمصر، وحسن حسنى من ملحقية الإعلام المصرى بالرباط... وتجاوزنا القوانين وتسلمتُ التأشيرة.

فى نفس الأسبوع ، قُبيل السفر كنتُ كل يوم، وابتداءً من الساعة السادسة مساءً ، أوجد رفقة عدد كبير من الأدباء والمثقفين والأصدقاء ومواطنين أيضا، بساحة السراغنة وسط الدار البيضاء ،لحضور ومتابعة أشغال اللقاءات المفتوحة على الهواء الطلق، ضمن معرض الكتاب الكازابلانكي، والذى انعقدت دورته الثالثة تحت شعار "مغاربة الهامش"، فى إشارة ساخرة مُعارضة لشعار معرض النشر والكتاب المنعقد بالدار البيضاء فى شهر فبراير " مغاربة العالم"، والمنظم من طرف وزارة الثقافة المغربية.

كان عليَّ التوجه نحو مطار محمد الخامس ،وهو على بُعد أربعين كيلومترا جنوب الدار البيضاء، يوم السبت ثامن مايو في الساعة التاسعة ليلا. لذلك، رتَّبنا ندوتنا الأخيرة وسط الساحة. ابتداءً من الساعة الخامسة، فى موضوع حول انتقاد ومحاكمة السياسة الحكومية، والخراب الذى تجُرُّه على الجميع.

كنتُ سعيدا ونحن نتلمس جزءًا من أحلامنا.. شيء مشترك نعتز به، بل وأنا أرتجل كلمتي، انسابت مني فقرة دالة، قلتُ فيها

"... نُجدد التأكيد على عهدنا الذى التزمنا به أمام المثقفين، منذ عشرين فبراير الماضى .وأقول إنَّ زمن الصمت المريب قد ولّى ..ولن نُسلِّمَ رؤوسنا لأحد .وأقول أيضا إن القوس قد أوتيت باريها فانهضوا أيها المثقفون ولا تترددوا.. واضربوا بأفكاركم ونصوصكم وجه العبث والصمت وحقارة الزمن الذى لا ينصف الكلمات.

"... إننا ونحن نخوض انتفاضتنا، لا ننوبُ عن أحد .. لأن الجميع منخرط معنا .نحن جميعا أبناء الشرط التاريخى العصى، بأخطائه التى تريد تدمير جيل المثقفين وهَزْم خيالاته .نحن أبناءٌ شرعيون لعبد الكريم الخطابى والمهدى بنبركة وعلال الفاسى ..كما نحن أبناء سى أحمد اليبورى ومحمد نوبير الأموى أمد الله فى عمريهما .. نتمثل قيمهم الثقافية والفكرية، ونواجه بهم كل المنبطحين الذين خذلوا أصواتنا وصنعوا من جلودنا نعالهم للركض فى الأمتار الثلاثة عشر الأخيرة نحو بنيقات دار المخزن .."

وكنتُ أريد التصريح بكلام لم يأت وقته بعد ،للجهات التى مازالت تشك فى مرجعياتنا، لنؤكد على الاعتزاز بالذين يحرسون أحلامنا ويُعلموننا، وقد مرَّت على طرف لسانى أسماء أخرى لأنبياء وشعراء وثوار من لحمنا ودمنا، من قارتنا، ومن آسيا وأوربا وأمريكا اللاتينية... جميعهم صاغوا لحظتنا المنبثقة مثل طمى خلاق.

انتهينا فى الثامنة والنصف، ومباشرة توجهتُ إلى البيت ثم المطار.

أيام قاهرية

وصلنا مطار القاهرة الدولى (٤) فى الساعة السابعة والنصف من صباح يوم الأحد، تاسع مايو ، لحضور الندوة الدولية حول "تفاعل الثقافات الإفريقية فى عصر العولمة"، والتى ينظمها المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة فى ما بين ثامن ورابع عشر مايو ، وقد كان عنوان ورقتى " الإبداع الإفريقى بين تقاليد الشفاهية والهوية الثقافية "، إلى جانب أزيد من ستين مشاركا من أدباء ونقاد وجامعيين ينتمون إلى عدد من الدول العربية والإفريقية ،جنوب الصحراء، إضافة إلى الوفد المغربى (٥).

كان يوما صاهدا، بلغت درجة حرارته إحدى وأربعين درجة مئوية ، ورغم ذلك، خرجنا فى جولة تفقدية بوسط البلد، قبل أن نعود متأخرين، وقد اقترحتُ على صديقيَّ ، منعم ومحمد، قضاء بقية السهرة، إلى غاية الساعة الواحدة والنصف صباحا، بمقهى خان شقاوة.

●●●

القاهرة لا تُصبح مدينة بدون أحيائها المحملة بتواريخها وعمارتها وثقافتها، سواء فى الجهة الغربية حيث قصر النيل وغاردن سيتى والزمالك ؛أو في شرقها بمصر الجديدة والعباسية وحدائق القبة والمصرية ..أما شمال القاهرة فتوجد به شبرا وروض الفرج والمنيرة الجديدة ، وفى جنوبها مصر القديمة، المعادى، وحلوان ...فيما نجد الموسكى والمقطم وباب الشعرية والسيدة زينب بوسط القاهرة .

أحياء هى علامات تحمل أسرارا مُعتَّقة، تتحول إلى رسالات من وجهين؛ حقيقى وتخييلي.. فهذا حى الأزهر الذى بناه جوهر الصقلى منذ ٩٧٠ ميلادية ،حيث يوجد مسجد سيدنا الحسين بالقرب من أهم مركز تجارى وأثرى ، خان الخليلي، والذى أنشأه الشريف الخليلى ،كبير التجار فى عهد

السلطان برقوق سنة ١٤٠٠ ميلادية ، وأعادَ السلطان الغورى ترميمه بعد قرن وإحدى عشرة سنة .

وإلى جوار هذا الإرث ، يوجد حى الغورية ، ثم شارع المعز لدين الله بكل عجائبه ، فهو متحف تاريخى وثقافى مفتوح ، يُفتنُ باستمرار وفى كل الأوقات..مُذ بناه جوهر وأنشأ سوره الشمالى من بابين : باب النصر وباب الفتوح؛ أما السور الجنوبى فمدخله يحتوى على باب زويلة .ومن باب الفتوح إلى باب زويلة يمتد شارع المُعز المعروف أيضا بالمقطم والقاهرة والقصبة .

●●●

يوم الاثنين، انطلقت أشغال الندوة فى حفل افتتاحى بقاعة الأوبرا الصغيرة، وسط جو ربيعى معتدل الحرارة، قبل الانتقال إلى قاعة الندوات بالطابق الثالث بالمجلس، لمتابعة جلسات المحاضرات والتى ستعرف مناقشات ساخنة ومهمة؛ حول ثقافات إفريقيا بأصوات الأفارقة فى الشمال الغربى والشرقي، أو فى دول جنوب الصحراء.

يوم الثلاثاء، يستمر نفس المستوى ويتشعب النقاش فى محاور جديدة ، أمّا ما تعلق بأحوال الدنيا، فقد بلغ إلى

عِلمنا أن سحابة بركان ايسلاندا تَعبُرُ سماء المغرب ،مما أجبر ثمانية من المطارات إلى الإغلاق المؤقت، ففكرتُ بسرعة فى البحث عن وسيلة أخرى للسفر إذا ما رفضت السحابة القاتلة الانسحاب عن سمائنا.

وحتى استثمرَ كل الزمن القاهرى بشكل جيد ومنظم ،كنتُ أنتهز فرصة السويعات بين الجلسات الصباحية والمسائية، وتحديدا فى ما بين الظهيرة والساعة الخامسة، لقضاء بعض الأشغال والزيارات.

وهكذا، زرتُ الجامعة الأمريكية الموجودة بشارع القصر العينى فى جلسات عمل مع د/فريال غزول ود/وليد الحمامصي، كما زرت أصدقائى فى الهيئة العامة لقصور الثقافة بعمارة العرائس. وفى المسافة ما بين الجامعة الأمريكية والهيئة ، صادفتُ مظاهرات، بالقرب من مجلس الشورى، لعمال يرفعون شعارات تطالب بإنصافهم، يعتصمون ليل نهار.. فى حين، كانت هناك مظاهرات أخرى تحتج على استمرار قانون الطوارئ ، والذى صودق على تمديده لفترة أخرى .

زمن السلطان الغورى

منذ فـتـرة طويلـة، قـرأتُ للأديب جـمـال الغـيطـانى (الذى صـادف حـضـورى بالقـاهرة الاحـتـفـال بعيد مـيـلاده الخـامس والستين) روايتـه " الزينى بركـات" ،ثم عاودتُ قـراءتـهـا لمرات.. وفى كل مرة كـان جمال التـخييل فى التـاريخ يشدُّني. تذكرتُها بكل تفـاصـيلهـا الصـغـيرة ،كـمـا لو أن الغـيطانى قد كـتـبـهـا لنعيشـهـا مـرات ومـرات . تذكرتُهـا، وقـد هـيـأ المجلس الأعلى للثقافة للمشاركين وبعض المدعوين، فرصة اللقاء بقبة الغورى للاسـتـمـتـا ع بحفل فني وشـعرى بديع ،شـاركت فيه فرق فنيـة من مصر وخارجها.

ونحن بداخل القبـة ،فى تلك المسـاحـة المفتوحـة على أكـبـاد السمـاء الحنون.. والمحاطة بحيطان عاليـة ذات نوافذ بشـبابيك حديدية، جلسنا على كراسى أمام منصـة قليلة العلو، ستفيض بما رَحُبت.. أغـان ورقصات افريقية وأناشيد وأشـعـارا أعادت الروح للمكان واستعادت الزمان.

فى رمشـة عين، وخـلال ثوانٍ معدودة، رنَّ هـاتفى. كلمتنى زوجتى تُطمئننى بسـرعـة، ثم تقول لى بأن مـريم ابنتى (أربـع سنوات ونصف) مُـصـرة على الكلام مـعى والدمـوع

بعينيها.كلمتها بكلام رقيق وعابر وأساسى ،لكنها لم تكن معنية بشيء غير قولها لى وهى مفزوعة : "عُدْ إلينا سريعا يا بويا فقد توحَّشتُك بزَّاف بزّاف ".

انقطعت المكالمة وأنا أرتعش ، من خوف غائب، ألا أرجع من زمن الغورى المشتعل، وقد أحسست أنى مندفع إليه دون العالمين وحيدا لأراه عن قرب وأحيى زمنه، متفكرا بذهول فى ما قالته، ولية الله مريم، وكيف نادتنى ببويا التى نُطلقها على والدى محمد بن عبد السلام فقط.

فجأة ،ظلُمَ المكان ثم عاد إليه نوره الأزلى الأول، بالأبيض والأسود... نفس الحضور بنفس ملابسنا، الجينز وقمصان بنصف أكمام، محاطون بجنود المملكة؛ وفوق المنصة على كرسى فخم وعال يجلسُ السلطان قنصوه الغورى بملابسه الرسمية ينظر إلينا وهو يبتسم، ثم شرد للحظة يخاطب نفسه:

"أنا قنصوه الغورى، الملك الأشرف، الملك السادس والأربعون من ملوك المماليك بالديار المصرية. أعتقنى قايتباى وجُعلتُ من جملة المماليك.انتقلتُ كثيرا وعملتُ هنا وهناك، إلى أن ذَهبتُ فى تجريدة عسكرية إلى حلب وتوليت نيابة طرطوس وعُينتُ حاجبا بحلب ثم نائبا بملطية.

حكمتُ مصر خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوما وساعات قليلة، ابتداءً من يوم الاثنين فاتح شوال ٩٠٦ هـ وانتهتْ بقطع رأسى يوم الرابع والعشرين من غشت ١٥١٦ .

لن أنسى أبدا يوم اتفق الأختاد الأمراء ،بعدما تجنبوا السلطة خوفا من بعضهم البعض، فاختاروا الخليفة الأضعف، الذى هو أنا، متفقين على إقالتى متى أرادوا وحتى أكون أداة فى أيديهم جميعا.

كنتُ خائفا ومنذهلا وراغبا ، فقررتُ أن أشترط عليهم شرط الضعيف المهزوم والتعهد لى بعدم قتلى إذا ما رغبوا فى خلعي.. فوافقوا.

لم أكن أعرف أن كرسى السلطة به قوة آلاف الشياطين والقتلة ،فقد تعلمتُ كيف أتحول بسرعة من ذلك العبد الخانع إلى الملك القاطع ،فبنيتُ وأصلحتُ وظلمتُ وتعسفتُ ونهبتُ فى أموال شعبى حتى انقطعت المواريث وصرت الوارث الوحيد.

لكن فى مرج دابق انفصل رأسى عن جسدى وعميتُ، فلم أستطع جمع نفسى والعودة إلى الحياة كما عدتُ إلى الحكايات."

عاد من شروده ليرفع يده اليسرى، فيشرع عساكر مدربون فى دق الطبول وآخرون بالمزامير؛ بينما خلف القبة تقبعُ نساء سوداوات يزغردن دون توقف. ومن دهليز على يميني، به غرف بسقوف مقببة، خرج ستة من العساكر مدججين بأسلحتهم المتدلية من أحزمتهم، يحملون جدع شجرة زيتون فى حجم متر طولا، وذات قطر مماثل. وضعوها بمكان يتوسط المنصة. وخلفها، على عرشه، يتتبع السلطان الغورى المراسيم الجارية، قبل أن يأذن بالدخول - بإشارة هذه المرة ،من نظراته فقط- للعسكرى السابع وهو يحمل سيفا كبيرا، ثم ينتظمون فوق الخشبة انتظاما، ثلاثة على اليمين وثلاثة على اليسار، أما صاحب السيف الكبير فيتوسطهما بجوار القرطة/ المذبح.

استمر دق الطبول والزغاريد وصوت المزامير، ورأيتُ رجلا قصير القامة ،يحمل تحت إبطه كُناشا كبيرا، مهرولا يجلس بالقرب من السلطان. إنه القاضى عبد البر بن الشحنة الحنفى ،يدُ الغورى اليمنى على مظالمه وخرقه للقوانين والأعراف الدينية والاجتماعية.

وَشْوَشَ عبد البر للسلطان الغوري، ثم فتحَ دفتره ذا الصفحات الكبيرة ، فأسرع واحد من العبيد واضعا الدواة

والأقلام المبراة بين يدى القاضي، فقد كان يوما مشهودا حينما فُتح الباب الخلفى لنُبصر صفوفا طويلة تصل إلى أبعد من المقطم، ربما، مسلسلة من أيديها وأرجلها، رجال ونساء وأطفال، جِيء بهم للقصاص منهم، أو ليتنازلوا عن ممتلكاتهم غصبا عنهم، أو تقطع رؤوسهم ويتم حملها لتُعلق على باب زويلة.

شخص أعرفه جيدا، أبصرته مع الداخلين ، فى مبتدأ الصف، مقيدا بالسلاسل ، الشاعر جمال الدين السلامونى وخلفه المئات أو الآلاف من المواطنين والأرامل والأيتام، فى حال يرثى لها، فلم أشعر إلا وأنا أقوم من مكانى شاقًّا القميص الأزرق الذى كنت أرتديه، صارخا فى وجه السلطان دون أن يهز وجوده شعرة فى مفرقي:

- "أيها الرئيس، السلطان الظالم، الأشرف قانصوه الغوري. أنا لستُ من عصرك أو دمك. ألم يكفيك ما نهبتَ وصادرتَ وغششتَ وخرقتَ وقتلتَ وخالفتَ أمر شرعنا ،وبنيتَ مجدك الزائل بالحرام... فتأتى اليوم لتستكمل جُرمك أمامنا".

ثم تقدمتُ نحوه، كمن يريد فداء أهله بدمه. فارتمى عليَّ الجنود الستة وحملونى إلى المقصلة، واضعينَ رأسى على

القرطة ، دون أن يتركوا لى فرصةً أشتم فيها رائحة الزيتون حتى نفذ سابعهم القرار، بسيفه البتار، فانفصل رأسى عن جسدى، فى اللحظة التى استمرت فيها دقات الطبول عالية وصافية مرفوقة بصوت المزامير والزغاريد، أضيفت إليها ما تناهى إلى سمع رأسى المرمى ووجهى إلى السماء بعينين مفتوحتين. عويل كظيم يأتى من خارج سور القبة، ونواح كتوم من الداخل يؤرقني.

قمتُ، ولم يكن أحد ينتظر أن تكون المعجزات الحقيقية هى التي تجرى ضد الحكام الظالمين. قمتُ، وأنا بدون رأسي، لا أرى ولكننى أتلمس بحدوسى إلى أن عثرتُ على رأسى فحملتُه، ثم وضعته بقوة، فانتفضتُ وعدتُ كما كنتُ وصرختُ فى وجهه مرة أخرى بنفس الكلام، مكررا ما عزمت عليه، متقدما نحوه .فعاد الجنود الستة وقد تسربت الدهشة المحتارة إلى يقينهم.. فأخذونى وعاد السياف يضرب ضربته الثانية، وسط الزغاريد ودق الطبول والنواح الذى أحسسته يأتينى ساخنا من كل العواصم، فيسرى فى كل دروب القاهرة متسللا إلى وجداني... وجدانى اللاهب .

تستمر نفس المعجزة ويواصل السلطان الغورى «معجزته»!! فى قتلى ،مرات عديدة لا تحصى... حتى تعب ومَلَّ ثم استسلم وتوجه إلى مرج دابق خائر القوى للقاء مصيره المحتوم.

كلاكيت خارج المسرح

صبيحة يوم الأربعاء، قمت باكرا. استحممتُ من آثار رحلتنا فى زمن الغوري، ثم توجهنا، بعد ذلك ،إلى مقر الندوات لنواصل نقاشاتنا. كما عرف، نفس اليوم ،جلسة عمل عقدتها مع الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة د/ عماد أبوغازى لأجل ترتيب ثقافي، كما ظلت مطارات المغرب مغلقة، فسألت عن البواخر التى كانت تعبر المتوسط معرجة على الاطلسى من الإسكندرية إلى الدار البيضاء. اكتشفتُ أنها لم تعد موجودة منذ فترة طويلة، ففوضت أمرى إلى الله.

فى المساء، نظم المجلس زيارة ليلية للأهرامات، واخترتُ الذهاب إلى المسرح، لمشاهدة مسرحية "ملك الشحاتين" بمسرح السلام ،الموجود بشارع القصر العيني، والتى هى فى الأصل نص للأديب الراحل نجيب سرور ،أخرجه محمد الخولى وتمثيل محمود الجندى، سامى العدل، ريكو، نجوى

فؤاد، لقاء سويدان، منيرة كرم، عادل الكومي، محمد عابدين.. وفريق آخر من الممثلين والكومبارس، وهى مسرحية غنائية، وضع ألحان أغانيها الفنان صلاح الشرنوبي.

حضرتُ قاعة المسرح قبل موعد العرض بساعة .وأمام بوابته ،بالقرب من الحائط المجاور رجلان بلباس متهالك يجلسان على الأرض كأنهما فى انتظار طلعة نجيب سرور ليُعدل لهما المشهد الأخير .انتبهتُ إليهما بشكل عابر، لكن واحدا منهما ،صاحب النظارات المقعرة، فاجأنى بسؤال إن كنتُ سأشاهد المسرحية؟ أشرتُ إليهما برأسى ، ثم عقَّبَ صديقه ،ذو السن المكسورة، بأنها مسرحية تستحق المشاهدة .

كنتُ بعيدا عنهما بأكثر من ثلاثة أمتار، وفهمتُ من هذه المناقشة ،التى لم تتجاوز دقيقتين، أنهما من الكومبارس، يُمثلان ضمن فريق من اللصوص فى مواجهة الشحاتين. وروى لى صاحب النظارتين (واسمه شوقى عطية ، بينما اسم صديقه محمود أبو القمصان) أن المسرحية سياسية تحكى عن فرقتيّ اللصوص والشحاتين وصراعهما الذى أجّجه الحاكم الإنجليزى. وفى الأخير يتَّحِدان بعد حدوث عدد من المشاكل.

كما شرحا لى ،فى هذه اللحظات اللامسرحية القليلة، أنهما يعملان ككومبارس لزيادة مدخولهما المادى، فالسيد شوقى عطية ، (وقد أرانى بطاقته المهنية – دون أن أكذبه أو أطلب منه إثباتا– وبها أنه يعمل موظفا أو مخبرا بالنيابة العامة)؛ أما السيد محمود فقد عمل لمدة ثلاثة عشر عاما فى ليبيا عاملا ،قبل أن يعود ويشتغل "سبع صنايع" وضمنها المسرح .

فى الساعة العاشرة، دخلنا الصالة ، وبدعوة من مخرج المسرحية محمد الخولي، جلستُ فى الصف الأمامى المقابل لخشبة المسرح، إلى جوار الأديب المصرى سعيد الكفراوى والروائى الليبى أحمد إبراهيم الفقيه والأستاذ الخضيرى.

وخلال ساعتين، تتبعنا عملا أوبيراتيا عاديا، لم يبذل فيه الممثلون أدنى مجهود لإقناعنا بأفكار واضحة ،كما هو الحال فى النص الأصلى لنجيب سرور،بقدر ما أقنعتنا رقصات لقاء سويدان وفرقة الفتيان والفتيات؛ أما نجوى فؤاد فكانت تتقدم كثيرا منا وتحقق النظر.. وأنا مدرك أنها كانت ترى فينا أبطالها الذين عاشت معهم على مدى أزيد من نصف قرن، وتقول فى نفسها.. هذا رشدى أباظة، أنور وجدى، فريد الأطرش، عبد الحليم حافظ... وغيرهم.

- اصْحى يا نجوى.. نحن هنا نبحث عن حكايات للمستقبل الهارب، وليس عن زمنك المستعصي..

ثم التفتَ إليَّ سعيد وهو يقول (لحظة وقفت نجوى مرة أخرى أمامنا مُتعبة دائخة من الزمن الهارب، تنظر إلينا بعيون حزينة):

- انظر يا شُعيب....

الأرض شرق وغربْ   بَحِبَّها وهى مالكة
جريحة حرب   وأَحبها وهى مرمية

فهمتُ خفة دم عمنا سعيد ، وأنه استعار البيتين الشعريين من قصيدة " اسم مصر" لصلاح جاهين، وأسقطهما على لحظتنا تلك.

أشفقتُ على شيخوختها ورقصاتها الفاقدة لرشاقة بعيدة. خرجنا بعد منتصف الليل ثم مشينا وسط حى غاردن ستى البهى ..فشعرتُ فيه بحالة غريبة من الفرح وأنا وسط أشجار شامخة، تتساقط أوراقها فى غنج وهدوء. ركبنا السيارة وتوجهنا إلى فندق البيراميزا.



عدتُ فى وقت متأخر من الليل ، وعاد إليَّ شيطان النثر، وهو غير سلطان الشعر الرشيق. فصاحبى جاءنى محملا

بعـدد من الحـقـائق والخـيـالات ،مـلأنـى بالكتب والوثائق...
وذكَّرنى بالنص النائم الذى يستفيق بداخلى كلما هاجرتُ
وطني، فقلتُ له بأن نصوصا نائمة كثيرة تزدحم فى نفسى
التى لا ألومها على شيء فى كل هذا، سواء هنا أو هناك .

- أنا معك ،معنىٌّ فقط بحكاية الجبل وأهله.. أما غير ذلك
مما تفكر فيه أو ما ستصادفه فى الأيام المتبقية بمصر فهو
مِلكُكَ وحدك (قال لى شيطان الحكاية).

أخرجتُ أوراقى القديمة، وقرأتُ ما كنتُ كتبتُه من قبل ،
ثم رميتُ القلم وتمددتُ فى الفراش متفكرا فى ما جرى
لاحقا بالجبل .وسرعان ما نسيتُ الأمر ونمتُ، تاركا شيطان
النثر واقفا دون أن يلوى على شيء من خيالى.

مثل نهر شارد

كل مكان أزوره وأعـود إليـه، إلا وتكون وشـائج المودة
الحقيقية بيننا راسخة، تعززها صداقة أهله من أصدقائى.
ففى كل مرة أبحث عن لحظاتٍ لزيارة ولقاء أصدقاء أعزهم،
فيما تعذر عليَّ اللقاء بآخرين، لوجـودهم خـارج القاهرة ،
أو لأن هواتفهم النقالة لا ترد.

يوم الخميس، هو آخر يوم فى برنامج الندوة التى تواصل فيها النقاش بحرارة ،وعرفت الجلسة الأخيرة اقتناعا بمواصلة الانفتاح على ثقافتنا الأفريقية فى مسارات جديدة للدنو من هويتنا المشتركة.

وقد فاجَأنا إخوتنا فى المجلس الأعلى للثقافة بدعوة كريمة، بعد الثامنة ليلا، إلى عمق القاهرة الفاطمية،وسط سورها بشارع المعز لدين الله الفاطمى بحى الجمالية .فرُحنا فى اندهاش جماعي، وتجولنا لساعة بتلك المعالم برفقة حكّاء يبعث الحياة فى الأمكنة التاريخية وهو سعيد الكفراوي، ومؤرخ أنجز أهم أعماله على نفس الفترة، د/عماد.

بعد حوالى ساعة من الدهشة، دخلنا الدرب الأصفر. خطونا حوالى مائة متر لنجد بيت السحيمى؛ وهو قصر كبير ذو بيوتات ومساحات واسعة، فتعشينا فى جو حميمى ممتع.. ثم فجأة لمحت د/ جابر عصفور يحضر بيننا ،جاء يسلم على الحاضرين، فقمتُ من مكانى وعانقته وقد شعرت بدفء غريب يغمرنى ..نسيتُ كل شيء إلى جواره (أخذنى جانبا يطمئن ويسألنى إن كنت فى حاجة إلى أى شيء بالقاهرة . شكرته وأنا أحس بحرارة وهو يخاطبنى كما لو يخاطب ابنه

الذى عاد من سفر). وهو نفس شعورى الذى أحسه حينما التقى بوالدى محمد بن عبد السلام أو بأساتذتى فى العلم والحياة... أطمئن وأشعر بالأمان إلى جوارهم.. فالدكتور جابر لوحده جامعة متحركة بالعلوم والمعارف والأخلاق النبيلة، وأنا اعتبر نفسى واحدا من تلامذته وأعتز بذلك، وعلينا دين فى أعناقنا تجاهه.

عُدنا متأخرين إلى الفندق، ثم خرجنا بعد منتصف الليل، نحو مقهى خان شقاوة ،حيث قضينا فيه، نحن الثلاثة: محمد ومنعم والعبد الفقير إلى الله، أزيد من ساعة ونصف قبل العودة إلى غرفنا، وقد أنضجتُ أمرا جلَلا فى نفسي، لم أخبر به أحدا من قبل أو من بعد .

قبل خلودى إلى النوم، قررتُ زيارة شارع المعز لوحدي، ولم يكن مُتبقيا على التنفيذ سوى أربع ساعات فقط، وهى حصتى من النوم، حيثُ استفقتُ فى الرابعة والنصف، خرجتُ بسرعة فى ظلام فجر آت لا ريب. ركبتُ التاكسى .نزلتُ بحى الأزهر سابحا فى أنوار مسجد سيدنا الحسين، متسربا عبر خان الخليلى فى دروبه السحرية (حي خان الخليلى واحد من ثمانية وثلاثين سوقا كانت منذ أيام المماليك ..والسوق يقع

فوق مقابر الخلفاء الفاطميين). وصلتُ إلى شارع المعز ، كان صامتا متأملا وسط أضواء خافتة ، بخطوات ثقيلة وأخرى سريعة، ومن حين لآخر، تتناهى إلى سمعى أصوات محملة بآثار النوم... فأسمعها مثل الخيال.

دخلتُ وحيدا فى فجر صامت، فصرتُ متعددا فى زمن يضج بأكثر من حياة، تختلف وتتبدل كل ثانية .جلستُ بمقهى فرعية. هناك، شربتُ شايا ثم قمتُ فمشيتُ ذهابا وإيابا وسط عصور تتراءى أمامى وأنا أسبحُ بجوار جامع الحاكم بأمر الله، وكالة قايتباى، بيت السحيمى، جامع سليمان آغا السلحدار،جامع الأقمر، الدرب الأصفر، سبيل عبد الرحمن ، قصر الأمير بشتاك، جامع السلطان قلاوون،مدرسة الظاهر برقوق، تربة الصالح أيوب ،المدرسة الصالحية، المدرسة الكاملية، مدرسة الناصر محمد بن قلاوون ،جامع الأشرف برسباى، مدرسة وسبيل السلطان الغورى ،حمَّام المؤيد ...

على طول كيلومترين متعرجين ،مثل نهر شارد ومُتعب، يحمل على كتفيه أنواء أزمان بعيدة، من باب الفتوح إلى باب زويلة، تشيدت ستة مساجد وسبع مدارس وسبعة أسبلة

وأربعة قصور ووكالتان وثلاث زوايا وحمّامان وبوابتان ووقف أثرى .

●●●

عدتُ مشبعا بالحياة . بقيتُ صامتا أتفكر فى المعز لدين الله، رابع الخلفاء الفاطميين فى تونس، وأولهم فى مصر والإمام الرابع عشر من أئمة الإسماعيلية. وفى المساء، عاد إلىَّ شيطان الحكاية بعدما اختليتُ فى غرفتى وصرتُ وحيدا .

حكاية لتسلية المُسافر

لماذا أنا معنيٌّ بالتخطيط لرواية أوهِمُ فيها قارئى المحتمل، هنا وهناك، أنها من طابق أرضى سهل الولوج على الكبار والصغار، الأصحَّاء أو من ذوى الاحتياجات الخاصة والعامة. والحقيقة أنى أعمل على طوابق متعددة، ودهاليز ومخابئ لا حدود لها... كأننى أرسم خريطة جديدة لطروادة أو بغداد ...أو ما لم يقله الإخباريون عن مدينة النحاس.

ولكننى حقيقةً، أحكى عن الجبل وما يقع فيه بشكل بريء.. لا أقصد من ورائه سوى تسلية مسافر، يجد نفسه وحيدا، فيكتب أى شىء دون أن يفكر فى ما يعنيه...

المتعة فقط ولا غير.



أهل الجبل تعبوا من الحُكم المطلق ونظام التعيين فى المناصب التى تبقى محصورة فى العائلات الكبرى، وهى تجيد تدعيم وتقوية شجرتها ،عبر خلق شبكات من المصاهرات والعلاقات الاقتصادية المتضامنة.

وأخيرا، أعلن السيد همَّام أنه باسم دولة الجبل، سيعملُ على تشكيل حكومة مُنتخبة من الشعب خلال سبعة أيام ، مذكرا بوجود ثلاثة عشر منصبا وزاريا للتبارى ديمقراطيا، هى: الداخلية والخارجية والاقتصاد والثقافة والرياضة والغاز والذهب والغابات والمياه والتعليم والصحة والإعلام والفن.

وعَقِبَ خُطبة همَّام، شرعتْ عدد من اللجان والتنظيمات السياسية والجمعيات، فى عقد لقاءات تلتها المفاوضات حول الكوطا. لكن الغريب الذى حصل فى تطورات هذا الأمر ،انه بعد تنصيب السيد همَّام رئيسا للوزراء وإعلانه تشكيل حكومته فى سبعة أيام، انطلقتْ شركة اليانصيب الوطنى للتراث والحداثة فى العمل بجدً واجتهاد (شركة مساهمة ذات مجلس إدارى مسير من ثمانية أعضاء هم : همَّام السبايسى رئيسا وولاء الطيب ووضاء الماجد وسلام الصويرى وطه المناصرى وعصمان الجبلاوى وعزيز الغازى ورابح الوادى ، أعضاء).

وقد تم تفويض التسيير إلى السيد رابح الوادى (٦) لخبرته فى هذا المجال أولا، وثانيا لأنه الحلقة الأضعف التى يمكن تدميرها فى أى لحظة، دون أن تترك أثرا يُذكر. ومباشرة بدأت شركة اليانصيب بإطلاق لعبة يومية من خلال إعلانات مكثفة فى الشوارع، بالأبواق والبرّاحين وفى الإذاعة والتلفزيون... مضمونها دعوة كل سكان الجبل الذين يحملون بطاقة التعريف أو شهادة الحياة،التقدم لدى أى محل تجارى وسحب بطاقة اليانصيب، وهى ورقة بيضاء من حجم ٨/٨ بها خمسة وثلاثون اسما. والمطلوب من المواطنين وضع علامة أمام ثلاثة عشر اسما فقط.

اللعبة بالمجان، ورقة واحدة للمواطن العادى، وورقتان للمسؤولين، وثلاث ورقات للممثلين فى المسارح القومية بالجبل. كما صدر مرسوم فى اليوم الثاني، مذيل بلائحة طويلة بأسماء المواطنين الممنوعين من المشاركة فى اليانصيب الذى هو تصويت ديمقراطى فريد.

هكذا أدرك أهل الجبل، ولأول مرة، أنهم ثلاث طبقات بالإضافة إلى فئة المغضوب عليهم. هناك لائحة بأسماء "ناس الهشاشة" أصحاب الورقة الوحيدة؛ ثم لائحة "ناس البشاشة"

أصـــحــاب الورقــتين؛ وأخــيـرا ناس أهـل الثــلاث ورقــات .
ويتحدثون أيضا عن وجود فئة رابعة ، نادرة، ممن لهم الحق في أربعين ورقة .

وقد ساهمت اللجان والتنظيمات السياسية في الدعاية للانفتاح الديمقراطي، تحت شعارات كثيرة، ربما كان أشهرها : المقامرة ولا المغامرة:

يا همَّام يا هُمَامْ زيد بنا للقدامْ
احْنا شعب الجبلْ احْنا خير الأممْ

●●●

أما أنا، الذي يكتبُ عن الجبل، فقد عشتُ كل حياتي في السهول،لا أصعد الجبال أبدا إلا في خيالي. ورغم ذلك أحلم باقتناء أراض في الجبل أؤسس عليها دويلة صغيرة أحيي فيها ما تبقى من عمري الطويل.

أعـودُ إلـى جـبـل النص نائم، وقـد رأيتُ أنني أغـفلتُ مواطنين آخرين لا ينامون، جعلوا من الكهوف البعيدة مأوى لاجتماعاتهم السرية بعيدا عن عيون المُخبرين.

شباب وشابات ينتمون إلى الفئات الشعبية ،منهم طلبة ومعطلون وعمال وأطر أيضا، من صحفيين ورجال تعليم

وفئات أخرى من قطاعات مختلفة، أعلنوا أنفسهم بعد نقاشات مطولة، فرقة ثورية تعمل على مناهضة ما أسمته، فى إحدى بياناتها، بالعبث السياسى والطبخة التى ستقود إلى السكتة القلبية، يتزعمهم شاب يسمى محمد الصّاحب، بداخله قوة وذكاء وقّاد، استطاع أن يجمع حوله جميع الغاضبين، له ملَكَة عالية فى الخطابة وتملك القلوب؛ اشتهر بقراءاته فى كتب الأدب والتاريخ والسياسة، كما اشتهر بأمانته وصدقه وشجاعته.

خلال السبعة أيام المعلومة، قاموا بتوزيع منشورات وخرجوا فى مظاهرات، ملأت الشارع الكبير الممتد من قمة الجبل إلى السفح المترامى ،مما أرغمَ السيد همَّام واللجنة السباعية، التصريح بأنَّ ما تفعله الفرقة الثورية ،بقيادة محمد الصّاحب ،هو خروج عن طاعة الحاكم ومن معه ؛لذلك أعطى همّام ثلاثة أوامر عاجلة:

أولا: عدم التوقف عن استكمال الحملة الانتخابية، مع الإكثار من الإعلانات والأغانى الشعبية والسهرات والمهرجانات.

ثانيا: الضرب بقوة، على أيدى كل المتظاهرين واعتقال الرؤوس المدبرة .

ثالثا : أريد محمد الصاحب حيا أو ميتا.

صورتان متناقضتان تتجاذبان الزمن فى الجبل: بذخ فى الاحتفالات ودعوة للناس إلى ملء ورقة اليانصيب من جهة ، ومن جهة أخرى، قتل واعتقال فى مظاهرة اليوم السادس، حيث هاجم العسكر المتظاهرين بدبابات صغيرة وكبيرة وطائرات الهيليوكوبتر وقنابل، مما خلف مئات القتلى والجرحى والمعتقلين ؛أما بخصوص محمد الصاحب فقد أخطأه المخبرون ونصبوا كمينا لشخص آخر ،شُبِّهَ لهم فى فجر حالك وماطر، فقتلوه وجاءوا به مرميّا أمام أقدام همَّام.

أما الصاحب، فقد عاد إلى ساحاته الخلفية ،قرب الكهوف رفقة من تبقى، عادوا إلى اجتماعاتهم وسط نقاشات صاخبة. وتحت تأثير حدث فقدان عدد من رفاقهم من عمال وشعراء وطلبة، احتدم النقاش، فأعلن البعض عن تراجعهم وعودتهم إلى الخنوع والحياة مثل غيرهم ، فيما ازداد حماس أكثرهم وقرروا الاستمرار فى حركاتهم مهما كلفهم ذلك من شهداء.

شباب لهم من الإرادة القوية ما يهزم الجبال ويهدها هدًّا.وسرعان ما سيعاود آخرون الالتحاق بالكهوف.

وقد أصدر ديوان السيد همَّام، بلاغا غريبا ومضحكا، يقول فيه إن ثلة من المشاغبين يسعون إلى قلب النظام وخلق الفوضى وإحياء دولة الأمويين الثانية في "جبلنا" الذي لا يحكمه إلا الجبلاويون.

لم يهتم أحد لمعنى هذا الكلام ولا لمغازيه

انتهت مهلة الأيام السبعة، فطلع همَّام الجبلاوي بفتوى جديدة، أطلق عليها اسم الديمقراطية الانتقالية المطلقة، وقال إنه استجابة لعدد من الأصوات فسيتم اختيار الثلاثة عشر وزيرا لحكومته القادمة من الشعب، وبطريقة لن يُراق من حولها الدم مثلما وقع في استحقاقات اليناصيب.

وهكذا، جرى إعداد صندوق زجاجي كبير جدا، في حجم مائة متر مربعة وسط ساحة كبيرة، غير مسقوف، بداخله مغازل لولبية تعمل على تحريك ما بداخل الصندوق من كويرات مرتبطة بسلسلة، هي عبارة عن أنبوب يقود إلى خارج الصندوق.أنبوب لا تمر منه سوى كويرة محظوظة.

ثم دعا كل الراغبين ،من ساكنة الجبل، إلى ترشيح أنفسهم بنفس الترتيب، فئة الورقة الواحدة، والورقتين، ثم نخبة الثلاث ورقات، وذلك بكتابة اسمهم الكامل وعنوانهم

ورقم هاتفهم فى ورقة، وداخل كويرة بيضاء يتم رميها فى صندوق الاقتراع الزجاجي.

وقال السيد همَّام، إن الترشيح حر للجميع، باستثناء من طلعت أسماؤهم فى القوائم الممنوعة، وخص المترشحين بوضع ترشيحاتهم يومى السبت والأحد إلى غاية منتصف الليل.

خلال هذه الفترة، تشكلت لجنة متكونة من السادة: ولاء الطيب وطه المناصرى ووضَّاء الماجد للإشراف على الهيئة المسماة هيئة الصندوق والقرعة الكبرى.

بعد منتصف ليلة الأحد- الاثنين، بدقيقة واحدة، كانت الهيئة بجوار الصندوق أمام أعين باقى أعضاء اللجنة والكاميرات ، ووسائل الإعلام الوطنية والدولية ولجان المراقبة، تبث هذا الحدث التاريخى مباشرة.

يجلس همَّام ،مُحاطا بهيئة الصندوق، يُعطى أوامره بانطلاق عملية الفرز.

ضَغَطَ ولاء الطيب على الزر، فاشتغلت المغازل بداخل الصندوق، دون صرير ، تُحرك آلاف الكويرات قبل أن يلتقط الأنبوبُ واحدة يرمى بها خارج الصندوق، تتدحرج عبر أنبوب

خارجى آخر يقود الكويرة المختارة إلى إناء زجاجى على طاولة أمام الهيئة؛ فيأمرُ رئيسها واحدا من الأعضاء بفتح الكويرة وقراءة الاسم الموجود بداخلها، قبل وضعه أمام أعين الكاميرات لتأكيد صدقية العملية الديمقراطية.

ثلاث عشرة دورة، دارت خلالها المغازل وسارت الكويرات المحظوظة منسابة عبر القنوات الموصولة بإناء الهيئة، وفى كل مرة، تتم تلاوة الاسم الفائز وسط هتافات صاخبة وإغماءات متكررة وصراخ تميد له الأرض... ويستغرق الأمر عقب كل دورة نصف ساعة صاخبة .

حوالى الساعة السابعة صباحا من صبيحة يوم الاثنين، انتهت سهرة القُرعة الكبرى، وتم تسليم الأوراق الفائزة إلى السيد همَّام الذى قال لوسائل الإعلام بأنه سيعتمد نفس الطريقة فى توزيع الحقائب الوزارية.



عادت المظاهرات إلى الشوارع، واستمرت ثلاثة أيام دون انقطاع. وقد نزل همَّام شخصيا رفقة جماعته يقودون الدبابات، يدوسون بها على المنتفضين ثم يجمعون أشلاءَهم

بالجرّافات فى مدافن جماعية مجهولة. كما تم القبض على محمد الصاحب وأغلب مجموعته ،فرموهم فى سجن بجزيرة صغيرة ،تحت حراسة مشددة، على بعد كيلومتر واحد عن الجبل.

أما ما تبقى من رفاق الصاحب، فقد عادوا إلى الكهوف بجراحهم فى انتظار رصّ صفوفهم من جديد.



يوم السبت عادت صورة همام وجماعته إلى واجهة الإعلام من جديد، وهو أمام مئات الصحفيين والكاميرات، يتوسط منصة عالية تضم هيئة الصندوق؛ أمامهم صندوقان زجاجيان من حجم صغير. فى الصندوق الأول ،على اليمين، توجد أسماء الثلاثة عشر فائزا فى القرعة الكبرى؛ أما الصندوق الثانى ،على اليسار، ففيه ثلاث عشرة كُويرة بداخلها أسماء الوزارات.

انطلقت العملية بحضور الفائزين وعائلاتهم وعدد من الموظفين والمدعوين، من داخل دولة الجبل ومن الدول الصديقة والشقيقة، من كافة القارات الموجودة.

تقدم همام وولاء، كل واحد منهما أمام صندوق. يختار ولاء كويرة الاسم ،ثم يليه همام باختيار كويرة الوزارة التى ستسند إليه.. إنها لعبة ديمقراطية المطابقة.

هكذا، تشكلت الحكومة وسط هتافات لا نظير لها: أما محمد الصاحب ورفاقه فهم قابعون فى السجن داخل حفرة متربة وباردة ، تفرز مياها عادمة وحشرات دودية حمراء. يتعرضون يوميا لكل أنواع الجلد والإذلال، فى انتظار إتمام تدوين ملفات ملفقة لهم ... وهم صامدون يفكرون فى تدبير المرحلة القادمة .

وهناك فى الجبل، بدأت دائرة أصحاب محمد الصاحب تتسع رغم ما طال الناس من رعب وهلع ،ورغم ما كمَّمَ الأفواه من فقر وجهل.. لكنهم عادوا نافضين عنهم ما أثقل أرواحهم ، مُيممين وجوههم الناضجة جهات الرياح القادمة... معهم نعمان وعلاء وسعد وزكريا ويوسف... شباب متحمس رغم أنهم كانوا، إلى وقت قريب، رعاة للغنم فى الغابات المجاورة.

إحالات

(١) أحمد الصبيحى : الرُّحيلة الثانية للصبيحى إلى مصر فى يوليوز ١٩٣٤ .

(٢) دراسات كتبها د/ عماد أبوغازى ، وهو من أمدنى بها .

(٣) الباحث والمترجم المغربى د/ عبد المنعم بونو .

(٤) دامت هذه الرحلة ما بين : ٨و ١٤ مايو ٢٠١٠.

(٥) كان الوفد المغربى متكونا من : حسناء اللبادى ، عبد المنعم بونو ، محمد الفلاح العلوي، ربيعة ريحان ، شعيب حليفي.

(٦) للمزيد من المعلومات عن السيد رابح الوادى ، انظر: شعيب حليفى: لا أحد يستطيع القفز فوق ظله (الاحتمالات العشر لكتابة رواية واحدة). الدار البيضاء .دار الثقافة.المغرب ط ١، ٢٠١٠ .(صفحات:١٨٥- ٢١٠).

مراجع النصوص

- ابن أبى محلى: الإصليت الخريت، عبد المجيد القدورى، الرباط . منشورات عكاظ ، المغرب ١٩٩١.

- ابن الصباح ، عبد الله : أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار. هذبها وأصلح خللها وعلق حواشيها محمد بنشريفة رحلة المدجن الحاج عبد الله بن الصباح .الرباط دار أبى رقراق. المغرب، ط١- ٢٠٠٨.

- ابن العتيق ، ماء العينين :الرحلة المعينية ١٩٣٨ . (حققها وقدم لها محمد الظريف) أبو ظبى . دار السويدى للنشر والتوزيع . الإمارات العربية المتحدة .ط. ١، ٢٠٠٤.

- ابن العربى، أبو بكر المعافرى: قانون التأويل - تحقيق محمد السليمانى - دار الغرب الإسلامى - ص٦٨ - بتصريف - بيروت ١٩٩٠.

- ابن العربى، أبو بكر المعافري: أحكام القرآن، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ج٤، ص٤ وما بعدها، الطبعة الثالثة، بيروت، ٢٠٠٣م.

- ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . (تحقيق وتقديم الشيخ عبد المنعم العريان). (لبنان. دار إحياء العلوم، بيروت ط٢ . ١٩٩٢ .

- ابن جبير، أبو الحسن : تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار .بيروت ، دار صادر . لبنان ، د.ت.

- ابن خلدون ، عبد الرحمن : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا . لبنان دار الكتاب اللبنانى المصرى . بيروت ١٩٧٩ .

- ابن رشيد ،السبتى: ملء العيبة بما جُمِعَ بطول الغيبة فى الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة.الجزء الخامس الخاص بالحرمين الشريفين ومصر والإسكندرية عند الصدور. (تقديم وتحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة) بيروت، دارالغرب الإسلامى ، لبنان . ط١، ١٩٨٨.

- ابن زيدان ، مولاى عبد الرحمن : الرحلة إلى الحجاز ومصر والشام . (تحقيق ودراسة سليمان القرشى) الرباط ، وزارة الأوقاف .كتاب دعوة الحق . المغرب، ط١ . ٢٠٠٩.

- ابن كيران ، الطيب : الرحلة الفاسية الممزوجة بالمناسك المالكية . (حققها وقدم لها يونس لشهب) . بيروت ، دار الكتب العلمية . لبنان، ٢٠١٣ .

- ابن مليح ، محمد بن أحمد القيسى :أنس السارى والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب (حققه وقدم له وعلق عليه محمد الفاسى) فاس ١٩٦٨ .

- الإدريسى، الشريف: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق. القاهرة ، المكتبة الدينية . مصر ٢٠٠٢.

- أعراب، سعيد: مع القاضى أبى بكر ابن العربى - دار الغرب الإسلامى - الطبعة الأولى - بيروت - ١٩٨٧م .

- البلوى ، أبو البقاء خالد : تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق . (تحقيق حسن السائح) فاس ، مطبعة محمد الخامس الثقافية، المغرب ، ١٩٧٠ .

- التجيبى، القاسم بن يوسف: مستفاد الرحلة والاغتراب (تحقيق عبد الحفيظ منصور) دار الكتب العربية للكتاب، تونس. ط١- ١٩٧٥ .

- التوزانى ، سيدى محمد: الرحلة . (حقق النص وعلق عليه ووضع عناوينه عبد الله عاصم) الدار البيضاء ، دار النشر المغربية . المغرب . ١٩٩٧ .

- الحجوى ، محمد بن الحسن : رحلة حجازية (تحقيق عبدالمجيد خيالى) الدار البيضاء .مركز التراث الثقافى المغربى . المغرب . ط١، ٢٠١٠.

- الحُضَيكي، أبو عبد الله :الرحلة الحجازية . (ضبط وتعليق عبد العالى لمدبر) . الرباط . الرابطة المحمدية للعلماء - مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث - سلسلة كتب التراجم والفهارس والبرامج والرحلات ٣- ط١، ٢٠١١ .

- حليفى ، شعيب : أسفار لا تخشى الخيال (كتاب الأيام) . الدار البيضاء ، منشورات القلم المغربى . المغرب ط-١ ، ٢٠١٢ .

- الدرعى ، أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر: الرحلة الناصرية (١٧٠٩م- ١٧١٠م) (حققها وقدم لها عبد الحفيظ ملوكى) أبو ظبى . دار السويدى للنشر والتوزيع . الإمارات العربية المتحدة .ط، ٢٠١١.

- سكيرج ، أحمد : ذكرى سفرأحمد سكيرج إلى الأقطار الحجازية وعودته إلى مصر فى طريقه إلى بلاد المغرب . مطبعة الصدق الخيرية بجوار الأزهر بمصر . الطبعة الأولى ١٣٥٢هـ.

- الشاوى الغنامى ، عبد الرحمن :رحلة القاصدين ورغبة الزائرين . مخطوطة فريدة بالمكتبة الحسنية بالرباط رقم ٥٦٥٦ .

- الشرقى، محمد بن الطيب: الرحلة الحجازية . مخطوط.

- الصبيحى، أحمد : الرحلة المغربية المكية . مخطوط . ومنشور بجريدة السعادة . المغرب ١٩١٦ .

- الصبيحى ، أحمد: الرحيلة الثانية للصبيحى إلى مصر، يوليو ١٩٣٤ . الرباط . المطبعة الوطنية .

- العبدرى ، أبو عبد الله : رحلة العبدرى . (تحقيق وتقديم محمد الفاسى) . الرباط، جامعة محمد الخامس. سلسلة الرحلات ٤ حجازية، ١، ١٩٦٨ .

- العياشى، أبو سالم: الرحلة العياشية . (حققها وقدم لها: سعيد الفاضلى وسليمان القرش) ج١و٢- أبو ظبى ، دار السويدى للنشر .ط١- ٢٠٠٦ .

– الغرناطي، أبو حامد:تحفة الألباب ونخبة الإعجاب . (تحقيق اسماعيل العربى) الدارالبيضاء ، دار الآفاق الجديدة المغرب .ط١ - ١٩٩٣.

– الغسال ، الحسن بن محمد: الرحلة الطنجية الممزوجة بالمناسك المالكية . (تحقيق محمد على فهيم بيومي) القاهرة، زهراء الشرق .ط١- ٢٠٠٩.

– القادرى، أبو بكر : رحلاتى الحجازية (ارتسامات وذكريات عن ثلاث رحلات إلى الديار المقدسة) .الدار البيضاء . مطبعة النجاح الجديدة - المغرب - ١٩٩٥.

– القلصادى ، أبو الحسن على : رحلة القلصادى (تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب) (دراسة وتحقيق : محمد ابو الأجفان) تونس ، الشركة التونسية للتوزيع .تونس ١٩٧٨ .

– الكتانى ، أبو عبد الله: الرحلة السامية إلى الإسكندرية ومصر والحجاز والبلاد الشامية . (تخريج محمد بن حمزة الكتانى) لبنان ، دار ابن حزم ، بيروت .ط١- ٢٠٠٥ .

– ماء العينين ، الشيخ : الرحلة الحجازية . (تحقيق ماء العينين مربيه ربه). الرباط . مطبعة المعارف .ط١- ٢٠١٠ .

- مجهول مؤلف : (القول المستقصى لبيت الله والمسجد الأقصى) (مخطوط) ١٧ ورقة ٢٣، س ١٧٠/٢١٠ مم بمؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود / الدار البيضاء . رقم التصنيف ١١ .

- الناصرى، محمد بن عبد السلام: الرحلة الناصرية الكبرى (دراسة وتحقيق المهدى الغالى) الرباط ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية . المغرب . ط١ - ٢٠١٣ .

- الهوارى ،أحمد بن محمد :دليل الحج والسياحة . الرباط ، المطبعة الرسمية ، المغرب ١٩٣٥ .

- الوزانى، أحمد بن حسون: الرحلة الوزانية الممزوجة بالمناسك المالكية. مخطوط .

كرونولوجيا
(كل التواريخ بالتاريخ الميلادى)

- المُعافرى (١٠٧٦ -١١٤٨) انطلاق الرحلة سنة ١٠٩٢.
- أبو حامد الغرناطى (١٠٨٠- ١١٧٠) رحل إلى مصر سنة ١١١٤ .
- الشريف الإدريسى (١١٠٠- ١١٦٦م).
- ابن جبير (١١٤٥- ١٢١٧) انطلاق الرحلة سنة ١١٨٣ .
- ابن رشيد السبتى (١٢٥٩- ١٣٢١) وصل إلى القاهرة سنة ١٢٨٥ .
- العبدرى (١٢٤٨ - ١٣٤١) انطلاق الرحلة سنة ١٢٨٩.
- ابن بطوطة (١٣٠٤- ١٣٧٧) انطلاق الرحلة سنة ١٣٢٥ .
- البلوى (١٣١٤ - ١٣٧٩) انطلاق الرحلة سنة ١٣٣٧.

- ابن خلدون (١٣٣٢- ١٤٠٦) انطلاق الرحلة سنة ١٣٨٢ .

القلصادى (١٤٢٢- ١٤٨٧) انطلاق الرحلة سنة ١٤٣٧ .

- ابن الصباح (القرن ١٥م) .
- ابن أبى محلى (١٥٦٠ - ١٦١٣).
- أبو سالم العياشى (١٦٢٨- ١٦٧٩) انطلاق الرحلة سنة ١٦٦١ .
- أبو العباس الدرعى (١٦٤٧ - ١٧١٦) انطلاق الرحلة سنة ١٧٠٩ .
- ابن مليح القيسى (..- ١٦٣٩) رحل ١٦٣٢ .
- الغنامى : انطلاق الرحلة سنة ١٧٢٩ .
- ابن الطيب الشرقى (١٦٩٨- ١٧٥٦) .
- الحضيكى (١٧٠٦- ١٧٧٥) انطلاق الرحلة سنة ١٧٤٠ .
- محمد بن عبد السلام الناصرى (١٧٣٢- ١٨٢٣) انطلاق الرحلة سنة ١٧٨٢ .
- أحمد الوزانى (١٨١١- ١٨٧١) .

- مــاء العــينين (١٨٣١- ١٩١٠) انطلاق الرحلة سنة ١٨٥٨ .

- الطيب بن كـيـران (ت ١٨٩٧) انطلاق الرحلة سنة ١٨٨٦ .

- الغـســال (١٨٦٦- ١٩٣٩) انطلاق الرحلة سنة ١٨٩٨ .

- الكتانى (١٨٥٨-١٩٢٧) انطلاق الرحلة سنة ١٩٠٣ .

- أحمد الصبيحى (١٨٨٢- ١٩٤٤) زار مصر فى سنتى ١٩١٦ و١٩٣٤ .

- التوزانى (١٨٨٣- ١٩٤٣) انطلاق الرحلة سنة ١٩٢٩.

- أحـمـد سكيـرج (١٨٧٧- ١٩٤٤) زار مـصـر سنة ١٩٣٣.

- أحـمـد الهوارى (توفى سنة ١٩٥٧) زار القـاهـرة سنة ١٩٣٤ .

- مـؤلف مـغـربى مـجـهـول زار القـاهـرة (١- ٦ مـارس ١٩٣٤).

- عـبـد الرحــمن بن زيدان (١٨٧٨ - ١٩٤٦)، انطلاق الرحلة سنة ١٩٣٨ .

- مـاء العينين بن العتيق (١٨٨٧- ١٩٥٧) انطلاق الرحلة سنة ١٩٣٨ .

- الحجوى (١٨٧٤- ١٩٦٥) انطلاق الرحلة سنة ١٩٤٩.

- أبو بكر القــادرى (١٩١٤-٢٠١٢) زار القــاهرة سنة ١٩٥٧ .

- شعيب حليفى : نصان عن القاهرة ٢٠٠٩ و٢٠١٠ .

الفهرس



شعيب حليفى

كاتب وروائى وأستاذ جامعى مز المغرب .

يشتغل أستاذا للتعليم العالى بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك بالدار البيضاء - المغرب .يتحمل عدة مسؤوليات منها : رئيس مختبر السرديات (كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك) ؛مدير قسم دكتوراه تحليل الخطاب السردى ، وماستر السرد الأدبى الحديث والأشكال الثقافية ؛عضو اللجنة العلمية بآداب بنمسيك - الدار البيضاء. وعضو فى عدد من الهيئات العلمية الاستشارية لمراكز ومجلات محكمة.

شارك فى عدد من الندوات بالمغرب والعالم العربى وأوربا وأمريكا فى مجال الآداب والعلوم الإنسانية .

ساهم بالكتابة فى عدد من الجرائد والمجلات المغربية والعربية وفى عدد من الكتب الجماعية.

أشرف على إعداد مجموعة كتب فى مجالات الأدب، التاريخ، القانون ، والدراسات الاجتماعية ضمن سلاسل:-

منشورات الرهان الآخر - حقوق الناس- دفاتر الشاوية - منشورات ألك.د.ش - مختبر السرديات - القلم المغربي.

عضو محكم فى عدد من المؤتمرات الثقافية، وفى عدد من الجوائز .

أصدر فى مجال النقد :

- شعرية الرواية الفانتاستيكية. القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة . مصر. ط ١ - ١٩٩٧- ط٢, دار الحرف . القنيطرة. المغرب . ٢٠٠٨ . الطبعة الثالثة دار ناشرون . لبنان ٢٠٠٩ .

- الرحلة فى الأدب العربي: التجنس،آليات الكتابة ، خطاب المتخيل . مصر .الهيئة العامة لقصور الكتاب. كتابات نقدية عدد ,١٢١ط,١, ابريل ,٢٠٠٢ (٥٢٨ صفحة) الطبعة ٢, .الدار البيضاء ,٢٠٠٣ الطبعة الثالثة. القاهرة . دار رؤية ,٢٠٠٥ (٥٧٦ صفحة) .الطبعة الرابعة .القاهرة ، دار رؤية ٢٠٠٦ .

- هوية العلامات: فى العتبات وبناء التأويل. القاهرة. المجلس الأعلى للثقافة. مصر.ط-١، ٢٠٠٤ ، ط-٢ . الدار البيضاء. دار الثقافة . المغرب. ٢٠٠٥ .(٢٢٤ صفحة). الطبعة الثالثة ٢٠١٣ . سوريا .

- مرايا التأويل: تفكير فى كيفيات تجاور الضوء والعتمة. ط. ١الدار البيضاء دار الثقافة ٢٠٠٩ . الطبعة الثانية المجلس الأعلى للثقافة - مصر ٢٠١٠ .

فى مجال الرواية :

- مساء الشوق . (رواية). منشورات الرهان الآخر. المغرب. ط- ١ ، ١٩٩٢ .

- زمن الشاوية . (رواية).الدار البيضاء .منشورات افريقيا الشرق .ط١ ١٩٩٤، ط- ٢ .القاهرة, ١٩٩٩ ,ط-٣ ٢٠١١، الرباط .

- رائحة الجنة. (رواية)، الدار البيضاء .منشورات الرابطة .المغرب.ط ١ ، ١٩٩٦، ط- ٢ ,٢٠١٢ ,سوريا .

- مجازفات البيزنطى. (رواية) ،الدار البيضاء . منشورات القلم المغربي. ط- ١ ، ٢٠٠٦، ط- ٢، ٢٠١٠ الرباط .

- أنا أيضا، تخمينات مهملة . (رواية) دار ناشرون بلبنان، شتنبر، ط١ ، ٢٠٠٩- ط٢، ٢٠١١ .مصر.

- لا أحد يستطيع القفز فوق ظله . الدار البيضاء ، دار الثقافة. ط١- ٢٠١٠ / الطبعة الثانية روايات الهلال مصر أبريل، ٢٠١٢ - ط٣- ٢٠١٤ . دار النايا دمشق .

- كتاب الأيام ، أسفار لا تخشى الخيال . الدار البيضاء، منشورات القلم المغربي ، ط١ ٢٠١٢ - ط ٢- ٢٠١٤ .دار النايا دمشق .

- تراب الوتد .(ثلاث روايات) . دمشق ، دار النايا .ط ١، ٢٠١٣.

رقم الإيداع
٢٠١٥/٣١٦٠
I.S.B.N
978-977-07-168-4

هذا الكتاب

النصوص التي يتضمنها هذا الكتاب، هي مختارات تمثيلية، ومقتطفات بتصرف أحيانا، شذرات فقط من مؤلفات زار مؤلفوها مصر، في حج ثقافي عبروا من خلاله إلى مكة والمدينة للحج الديني. نصوص تتوقف طويلا عند مصر: الإسكندرية والقاهرة لترسم صورا لرؤى وأفكار عن الأمكنة وهي مُحملة بأزمانها الحاضرة والماضية، وبشخصياتها من علماء وفقهاء وساسة ومواطنين بسطاء من المجتمع.

نصوص تُغطي مرحلة حوالي عشرة قرون، منذ القرن الحادي عشر الميلادي حتى القرن الواحد والعشرين، تنوب عن القرون السابقة التي ضاعت منا نصوصها أو غلبت معانيها الرحالين في أسفارهم العنيفة فلم يكتبوها؛ كما تنوب عن ملايين الحجاج والسياح الزائرين لمدينتي الإسكندرية والقاهرة عبر كل القرون السالفة، ومنذ نهاية القرن السابع الميلادي .

والقارئ لهذه النصوص، مفردة أو في سياقها النصي، سيُصادف أنها نص واحد، فؤاده واحد بألسنة عدة، فيه من الجمال ما يجعله شعورا شفّافا وأدبا رقيقا وتاريخا للثقافي وسجلا للتاريخي والجغرافي والإثنوغرافي.. إنها تمثيلات فيها من الصدق والعفوية بروح الإعجاب والنقد وحس التثاقف. إنها التاريخ الفعلي للصلات الوطيدة، على مرّ التاريخ، بين المغرب في أقصى الغرب الإسلامي ومصر التي تشكلت صورة مشرقة وجسرا للعبور إلى الروح والذات.

روايات مصرية للجيب

إنها بالفعل شيء ملائكي رائع

إثارة، متعة، ثقافة، تسلية، ذكاء، ألعاب، مغامرات



تذوّق متعة القراءة مع
أحلى القصص، وأجمل الروايات

أكثر الروايات باللغة العربية
إثارة، وأحفلها بالمتعة والثقافة

المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع 10، 16 ش كامل صدقي الفجالة،
4 ش الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة - القاهرة - ت: 22586197 - 24677371 - 24677138
فاكس - 202/24677188 ج.م.ع، 4 ش بدوي محرم بك - الإسكندرية ت: 03/4970840 - 03/4970850